مجلة الدراسات السودانية

ردمد: ISSN: 1022 - 3525

مجلة علميّة محكّمة يصدرها معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية

جامعة الخرطوم

المجلد الثالث والعشرون
أكتوبر ٢٠١٧م

مجلة الدراسات السودانية

ISSN:	1022-3525
Title:	مجلة الدراسات السودانية
Imprint:	الخرطوم: معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية – جامعة الخرطوم، 2010
Frequency:	Annual
Type of Publication:	Periodical - دورية
Language:	Arabic

هيئة التحرير

رئيس التحرير: بروفيسور/ الأمين أبومنقة محمد

سكرتير التحرير: الدكتورة/ منى محمود أبوبكر

أعضاء هيئة التحرير:

بروفيسور/ يوسف فضل حسن

بروفيسور/ سيد حامد حريز

بروفيسور/ صديق أحمد المصطفى حياتي

بروفيسور/ عبدالرحيم حامد مقدم

بروفيسور/ منزول عبدالله منزول

الدكتورة/ محاسن عبدالقادر حاج الصافي

إدارة التحرير:

ضبط اللغة: الأستاذ/ عباس الحاج الأمين

التصميم: المهندس/ خالد عبد الله محمد

سكرتيرة المجلة: السيدة/ نهلة محمد عثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية

أعزائي القراء الكرام،

يسرنا أن نضع بين أيديكم المجلد الثالث والعشرين من مجلة الدراسات السودانية، وكلنا أمل أن ينال رضاكم من حيث المضمون والإخراج، ونرحب بملاحظاتكم وتوجيهاتكم البناءة، وسوف نبذل قصارى جهدنا للاستجابة لها.

لقد شمل هذا المجلد كل أقسام الموضوعات: مقالات/أوراق، وبحوث، وعرض كتب، وملف، بصورة موزونة لحد كبير. والملف المعني يتتبع تاريخ نشأة وتطور "مكتبة السودان" المتفرعة عن مكتبة جامعة الخرطوم التي قمنا بنشر ملف حولها في المجلد السابق؛ وكلا الملفين بقلم البروفيسور/ قاسم عثمان نور الذي عمل في هاتين المكتبتين لفترة طويلة من الزمن، وترك بصماته واضحة فيهما.

ونشير – كما نفعل كل مرة – إلى أن النشر في هذه المجلة لا يقتصر على العلوم الإنسانية وحدها، بل يشمل جميع العلوم، إنسانية وطبيعية واجتماعية، طالما أن موضوع البحث ذو صلة مباشرة بالسودان.

نرجو في هذا المقام أن نشكر للعلماء المشاركين في هذا المجلد صبرهم على ملاحقتنا لهم لإكمال المعلومات وإجراء التعديلات والتصويبات المطلوبة، كما نشكر الزملاء المحكِّمين على إعانتهم لنا في المحافظة على المستوى المعهود للمجلة.

وفي الختام ندعو المشاركين في المجلدات القادمة للتقيد بقواعد وشروط النشر المبيَّنة في الصفحات الأخيرة من المجلة.

والحمد لله من قبل ومن بعد

رئيس التحرير

محتويات العدد

مقالات/أوراق:

١- قص أثر الإبل عند البجا، أوشيك آدم علي ١

٢- في تجزئة المجزأ: ظهور سودان ثالث،
عبد الغفار محمد أحمد ١٧

٣- هل السودانيون سياسيون: العودة إلى ورقة قديمة بالنقد والمراجعة،
ياسر عوض ٣٥

٤- لمحات من تاريخ الحُكم والإدارة في السلطنة السنارية،
حسن حامد مشيكة ٥٩

بحوث:

٥- الآثارالبيئية للمخلفات الصلبة الناتجة عن الصناعات الكيميائية
بمنطقة الخرطوم بحري الصناعية، منى علي محمد أحمد ٨٧

٦- الفوائد الاقتصادية لتدوير مخلفات السكر بالإشارة إلى إنتاج
الإيثانول في السودان، ناصر أحمد عمر ١١٣

عرض كتب:

٧- قاموس أعلام السودان لرتشارد هِلْ مُترجَماً إلى العربية: استعراض
ونظرات نقدية في المتن والترجمة، خالد فرح ١٣٣

٨- التعليم والأيديولوجيا: التعليم العام في السودان نموذجاً.
تأليف: د. أحمد عوض أحمد البشير، عرض: الرشيد الحبوب ١٤٥

ملفات:

٩- مكتبة السودان بجامعة الخرطوم، قاسم عثمان نور ١٥٧

١٠- قواعد وشروط النشر ١٨٥

١١- المشاركون في هذا العدد ١٨٧

قص أثر الإبل عند البجا

أوشيك آدم علي

مستخلص: التعرُّف على هوية الإنسان أو الحيوان من خلال الأثر من الملكات التي اشتهر بها بدو الصحراء، ولها سرد مستفيض في الحضارة العربية الإسلامية. وللبجا في شرق السودان أيضا باع طويل في هذه الملكة؛ فهم يستغلونها، كغيرهم من البدو، في التعرُّف على الإبل الهاربة والمنهوبة والضالة، إضافة للتعرُّف على بعض خصائص الحيوان الأخرى كالجنس والسلالة، وبعض الأعراض المرضية كالعرج والمرض وغيرها من الصفات الخاصة بالحيوان المفقود.

Abstract: Identification of human and animal identity by tracking their foot-prints on the ground is a unique capability characteristic of the Bedouins of the desert. This capability is widely employed and deeply rooted in Arab-Islamic culture. The Beja people of the Eastern Sudan are equally famous for this characteristic and use this method to track runoff, lost and stolen animals. The technique is, likewise, efficiently utilized to identify sex, breed, health status and other features of the traced animals.

كلمات مفتاحية: قص الأثر، القيافة، البدو، الإبل، البجا

مقدمة

نبذة عن القيافة وقص الأثر في التاريخ العربي الإسلامي

قبل الخوض في الحديث لابد من التطرق لبعض المصطلحات المهمة، وهي الفراسة والقيافة والقص، ونبدأ بإعطاء شرح لهذه المصطلحات ونبذة لبعض ما ورد عنها في التراث العربي الإسلامي.

الفِراسة: هي إدراك الباطن وخفايا الأمور بالنظر إلى الظاهر والاستدلال به. وجاء في الحديث الشريف "اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله".[1] وفي هذا المعنى يُروى عن الإمام الشافعي أنه رأى هو ومحمد بن الحسن رجلاً، فقال ابن الحسن إنه نجار وقال الشافعي إنه حداد فسألاه عن صنعته، فقال

(١) موقع ساحة الإقلاع الإلكتروني.

كنت حداداً والآن نجاراً. وذكر أيضاً أن معن بن زائدة قال: ما رأيت قفا رجل إلا عرفت عقله. قيل: فإن رأيت وجهه؟ قال: ذا كتاب يُقرأ. وفي السيرة النبوية ذُكر أن مجزز المُدْلِجي، وهو من بني مدلج من أحياء مضر، دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد قد ناما في قطيفة وغطيا رأسيهما وبدت فقط أقدامهما، فقال: إن هذه أقدام بعضها من بعض. فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك القول. وسبب سروره أن أسامة بن زيد كان شديد السواد، أفطس الأنف، في حين أن أباه زيد بن حارثة كان شديد البياض، وكان بعض من لا يعلم يطعن في نسب أسامة بن زيد، وكان ذلك يحزن رسول الله. ولكن عندما شبَّه مجزز المدلجي أسامة بأبيه زيداً فرح الرسول بشهادة هذا الخبير الذي أجمعت قبائل قريش على علمه ومقدرته في التفرس، واعتبرها شهادة خبير تجعل الناس يكفون عن الطعن في نسب أسامة إلى أبيه لاختلاف لونيهما. وبرع العرب في هذه الناحية من باب الزعم أن الولد إذا ولدته أمه يجب أن يكون بين هيئته وهيئة أبيه تقارب في الهيكل والشكل والطول والقصر. والفراسة في تفسيرها لعلاقات القرابة هي أشبه بعلم البصمة الوراثية في العصر الحديث، غيرأنها لا ترقى إلى مرتبة الدقة والتفسير العلمي الحديث.

القيافة: وهي اسم من الفعل، قاف ويقوف وقائف. وقاف أثره أي تتبع أثره، ويقصد بها اصطلاحاً إلحاق الأولاد بآبائهم وأقاربهم استناداً إلى علامات أو شبه بينهم. وجاء في محكم التنزيل: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً) (سورة الإسراء، الآية ٣٦). واختلف المفسرون في ما المقصود بـ"لا تقف"؛ فمنهم من قال المقصود بها لا تقل ما ليس لك به علم، وآخرون قالوا لا تتبع ما لا تعلم.

القص: هو التتبع، وقص أثره أي تتبعه شيئاً بعد شيء. وجاء في سورة الكهف (قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً) (الآية ٦٤)، أي رجع سيدنا موسى وفتاه في الطريق الذي كانا قطعاه يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى مدخل الحوت.

القيافة أو قص الأثر هوعلم يبحث في تتبع أثر الأقدام والأخفاف والحوافر، ويندرج تحت قائمة المهارات الفردية التي يتميز بها الإنسان البدوي اللصيق بالبيئة حيواناً ونباتاً. والقيافة، كما جاء في كتاب المستطرف،[٢] هي على نوعين: قيافة البشر وقيافة الأثر. إذا كان قيافة البشر هي الاستدلال بصفات أعضاء الإنسان وإلحاقه بإنسان آخر لما بينهما من الشبه، فإن قيافة الأثر هي الاستدلال بالأقدام والحوافر، والأخفاف،[٣] وتحليلها والاستدلال بما يتركه الإنسان أو الحيوان من أثر لاستنتاج صفته أو أكثر من صفاته، أو معرفة مكانه أو مقصده. وعادة ما تبدأ مهارة قص الأثر مبكراً بالتعرف على آثار أقدام الأهل وأفراد العشيرة ثم تتطور إلى أن يصل الماهر من القصاصين إلى معرفة أثر الرجل من المرأة، والشاب من الشيخ، والأعمى من البصير، والثيب من البكر، ووجهة القدوم والمقصد. والعرب كانوا يعترفون بمهارة قصاص الأثر ويتقون شره أو كما جاء في قول الشاعر الأسود بن يعفر:

كذبت عليك لا تزال تقوفني كما قاف آثار الوسيقة قائف[٤]

(٢) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (١٩٩٤): المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق عبد اللطيف سامر بيتية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٢، ص ١٣٧.

(٣) جريدة البيان الإماراتية ١٩٩٨/٨/١.

(٤) القائف: قصاص الأثر، الوسيقة: الناقة المنهوبة.

وسوف نركز حديثنا على قص الأثر، وبالذات أخفاف الإبل التي هي موضوع بحثنا، مع التطرق إلى النوع الآخر لاحقاً ولكن بإيجاز. ومن المعروف أن قص أثر الحيوان أصعب من قص أثر الإنسان، ويتطلب مهارات لا تتوفر لقصاص أثر الإنسان، لأن قصاص أثر الحيوان يتعامل مع أكثر من حيوان. وكما هو معروف من كتب التاريخ أن للعرب باعاً طويلاً في تتبع آثار الإبل، ونستدل هنا بحكاية من حكايات البدو، وهي أن رجلين من القافة اختلفا في أمر بعير، وهما بين مكة والمدينة، فقال أحدهما هو بعيروقال الثاني هي ناقة. وقصدا يتبعان الأثر حتى وصلا شعب بني عامر، فإذا ببعير واقف فقال أحدهما لصاحبه هو ذا، قال الثاني نعم فاقتربا منه فإذا هو خنثى فأصاب كلاهما.(٥)

البجا وقص الأثر

ولم يكن البجا أقل دراية ولا مهارة في هذا المجال من غيرهم من أهل البادية؛ فقد اشتهروا بتتبع الآثار والاستدلال بها على الهاربين والمجرمين حتى برع بعضهم في هذا الجانب لدرجة امتهن فيها هذه المهنة التي تسمى بالقصّاص (أوبَنَ- بالبجاوية) واستعملتهم السلطات العدلية منذ أيام الاستعمار في هذا المجال، ولازال كثير منهم يعمل في هذه المهنة إلى يومنا هذا. وقد برع العرب في هذه المهنة لأن أرضهم رملية وذات طبيعة صحراوية، لذلك يمكن مشاهدة رسم القدم أو الخف على الأرض بسهولة. وأظن أن البجا تفوقوا على العرب في هذا الجانب لمقدرتهم الفائقة لتتبع الأثار والأخفاف، ليس على الأراضى الرملية الناعمة، بل حتي في الأراضي الجبلية التي لا يمكن مشاهدة خف أو أثر رجل فيها. وسوف نفصل ذلك لاحقاً.

(٥) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، مصدر سابق، ص ١٣٧.

ما يجب توفره في قصَّاص الأثر

وقص الأثر في مفهومه العام ينظر إليه على أنه ضرب من ضروب المهارات الفردية التي أودعها الله في بعض عباده من البشر. فالشخص الذي تتوفر فيه هذه المهارة يكون حاد البصر، ثاقب البصيرة، متفتح الذكاء، واسع الخيال لدرجة أنه من رسم خف واحد على الأرض، أو ربما جزء منه، يستطيع الوصول إلى هوية الإنسان وقبيلته، عبداً أو حراً، ذكراً أو أنثى، أعوراً أم سليماً، وغيرها من الأوصاف المهمة، كما يستطيع عن طريق الأثر الوصول إلى جملة من الصفات والعيوب الجسدية للإنسان والحيوان، مثل العرج والحِمل والسلالة وغيرها. ولذلك ينظر إلى قيافة الأثر على أنها مزيج من الإلهام الرباني والذكاء الفطري الحاد والخبرة الطويلة.

يعزو إبن خلدون في مقدمته خصال الذكاء الحاد لإنسان البادية إلى غذاء البدوي المتمثل في اللحوم والألبان: "إن أهل الصحراء وأطراف الرمال تكون أغذيتهم وأقواتهم من الألبان واللحوم، لذلك نجدهم أحسن حالاً في أجسادهم وأخلاقهم من أهل التلول والمنغمسين في العيش، فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى، وأشكالهم أتم وأحسن، وأخلاقهم أبعد عن الانحراف، وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات".[٦] ربما هذه الخصال الممثلة في الذكاء الفطري هي التي تساعد البدوي في التعرف على إبله حيثما ذهبت وأينما رعت.

ومن الأشياء الغريبة في هذا المجال أن الشخص المتمرس يكون باستطاعته التعرف على قبيلة الشخص من خلال الأثر، وبالمثل أن بعض أهل البادية يستطيعون تمييز إبلهم عن إبل غيرهم عن طريق الأثر، وكذلك

(٦) عبد الرحمن بن خلدون (٢٠٠١): تاريخ ابن خلدون ومقدمته، تحقيق: خليل شحاته وسهل زكار، دار الفكر، بيروت، ص ١١٠.

باستطاعتهم التفريق بين الماعز والضأن. وما يلعب دوراًمهماً في هذه المهارة، الارتباط الوثيق بين البدوي وحيوانه، وكذلك مكونات البيئة المحيطة به؛ فهو يعرف حيواناته جميعاً شكلاً وأثراً، ولكل واحد منهااسم ولقب يدعوها به فتستجيب له.

كنت أتعجب كيف يستطيع الشخص التعرف على آثار كل حيواناته، وعندما سألت أحد رعاة الإبل من البجا إن كان التعرف على قطيع كامل من الإبل أو الضأن من الأمورالممكنة، فجاء الجواب مختلفاً، حيث قال أحدهم إنه يعرف أثر حيواناته واحداً واحداً مهما قلت أو كثرت، بل ويعرفها منذ أن كانت حيراناً صغيرة، مما يوضح الارتباط الوثيق بين البدوي وإبله. وفي الجانب الآخر يستطيع البعض التعرف على بعض إبله الأثيرة لديه، ومن خلالها يمكنه التعرف على بقية القطيع. ربما كان الرأي الأول هو الأصوب على حسب الإفادات المتكررة، وكذلك بناءً للارتباط الوثيق بين البدوي وحيوانه.

يتفاوت القصاصون في مقدرتهم في تقصي الأثر؛ فمنهم من يكون دقيقاً وحاذقاً لمهنته لدرجة تظن أن له سابق علم ومعرفة بالحيوان أوالإنسان الذي يراد تتبع أثره أو شاهده مشاهدة العين ووقف على شكله وهيئته، وذلك لدقة التفاصيل وتطابقها مع الواقع، ومنهم من هو أقل من ذلك، وآخرون بين هذا وذاك.

ما يستعين به قصاص الأثر لإنجاز مهمته

يحاول بعض القصاصين أثناء تتبعهم لأثر الحيوان الاستعانة بكل المعطيات والظروف المحيطة بهم، وما يركزون عليه في عملهم هذا في الدرجة الأولى هو مستوى ضغط خف الجمل على الأرض وملاحظة المسافة بين الخطى، وكذلك

رسمه على الأرض، إضافة لاستعانتهم بمكونات بعر الحيوان، إذ يقومون بتفتيت بعض البعرات بين أصابعهم لمعرفة النباتات التي تغذى عليها الحيوان في الفترة الأخيرة، ومن ثم يمكنهم تحديد الجهة التي قدم منها الحيوان، وهذا بناءً على علمهم المسبق بأن نباتات معينة لا تنمو إلا في مناطق بعينها، ومن خلال هذه المعلومة يمكنهم تحديد القبائل القاطنة في تلك الناحية. ويوضح هذا أن قصاص الأثر يتمتع بإلمام دقيق بالبيئة، إنساناً وحيواناً ونباتاً.

وللوقوف على المعرفة الكاملة بآثارالقطيع، ذكر لي أحد البشاريين (من القبائل البجاوية التي اشتهرت بتربية الإبل) أنه استعار من قريب له فحلاً من فصيلة **البانقير**، وهي من فصائل الجمال البشارية المشهورة، ليهجن به إبله. ومن سوء الطالع أن الولادات التي انحدرت من هذا الفحل كانت كلها إناثا إلا ذكراً واحداً، فأبقاه في إبله ورد الجمل المستعار إلى قريبه. وكان لا يلقح إبله إلا بهذا الفحل الصغيرالذي أنجب له بمرور الزمن عدداً كبيراً من الجمال والنوق. ويقول الراوي إنه إلى الآن، أي بعد مضي ما يقارب الثلاثين عاماً، يستطيع التعرف على أي ناقة أو بعير انحدر من ذلك الفحل. وهذه من المشاهد التي تتجلى فيها فراسة البدوي ومقدرته العالية على التعرف على آثار حيواناته مهما كثرت أو طال الزمن.

وعلى نفس المنوال حكى لي شخص آخر أن جده عند رجوعه من السفر كان يتتبع آثار إبله كلها وهي راجعة من الماء إلى المنزل، ومن خلال ذلك كان يستطيع التعرف على الموجودة والمتخلفة منها.

قص آثار الإبل في المناطق الجبلية

ومن الأمور التي تتجلى فيها نباهة قصاص الأثر، كيف أن الواحد منهم يتقصى أثر إبله في المناطق الجبلية التي لا يستطيع الشخص فيها رؤية رسم

خف على الحجرالأملس. فذُكر لي أن القائف أو قصاص الأثر يمعن النظرفي الأرض ويتابع في هذه الحالة تحرك الحجارة عن مواضعها - **أوَيْ منْقَلْ**، كما يسمونها بالبجاوية - ويواصل متابعة حركة الحجارة إلى أن يصل الأثر إلى منطقة مسطحة غير حجرية، وفي هذا المكان يكتفي خبير الأثر برسم خف كامل أو جزء منه على الأرض ليضع منه تصوره الكامل عن الحيوان المفقود. وفوق ذلك يمكنه تحليل رسم ذلك الأثر وربطه بالصفات الجسدية للجمل أو النافة، بمعنى آخريمكنه التعرف على جنس الحيوان ذكراً كان أو أنثي، وكذلك سنه وحالته الصحية كالعرج والعور، أو أنه يحمل أثقالاً .... إلخ. بهذه الوسيلة يمكنه التعرُّف على جملة من الصفات الخاصة بهذا الحيوان.

وفي الحقيقة أن تتبع الأثرفي المناطق الجبلية يشكِّل إحد التحديات التي تواجه قصّاصي الأثر وتتطلب مهارة قد لا تتوفر في جميعهم. وفي هذا الجانب تفوق البجا على العرب الذين لا يستطيعون قص الأثر إلا على أرض رملية يكون فيه الأثر بائناً. والقائف الماهر المتمرس يستطيع أن يعرف ما إذا كان الجمل صاعداً أم هابطاً من الجبل، وفي حالة الصعود يقولون إن أرجله الأمامية تنزلق بعض الشئ، في حين أن الجمل الهابط عادة ما تنزلق أخفافه الأربعة، ومن ثم تتضاعف عدد الحجارة المتدحرجة.

معضلة أخرى تشكل تحدياً لقصاص الأثر، وهي أن الإبل عندما ترد الماء تسير خلف بعضها البعض في مسار أشبه بالخط المستقيم، مما يجعل الآثار تتداخل مع بعضها البعض، أو ما يسمى **أُنْقال مْأتْ** بالبجاوية، أي الأثر الواحد. يخلق هذا تداخلاً في الآثار لدرجة يصبح معها من الصعب معرفة أثر بعير أو ناقة بعينها، إلا إذا لم تكن هذه الناقة أو الجمل هو آخر حيوان يمشي خلف المجموعة، ولا يكون أثره بائناً بمفرده على الأرض إذا لم يكن منفصلاً.

التعرف على الإبل النافقة من خلال الأثر

ولا تقتصر مقدرة القصاص على التعرف على الحيوانات الحية فقط، وإنما تتعداها لتشمل الحيوانات حتى النافقة منها، شريطة أن يتوفر ما يستعان به لذلك. رُوي لي في هذا السياق أن شخصين تخاصما في ناقة ذُبحت أو نفقت قبل عدة سنين وكاد أن ينشب بينهما خلاف شديد. وللفصل في القضية جيئ بقصاص الأثر، وسأل الرجل إن كان هناك ما يستعين به للتعرف على الناقة النافقة. أحضروا له خفاً للناقة هو كل ما تبقى منها. أمر الرجل بدفن الخف في الأرض وصب عليه الماء لمدة ثلاثة أيام متتالية حتي أصبح رطباً ليناً، وفي اليوم الرابع أخرج الخف ووضعه على أرض ناعمة مسطحة، ومن رسمه على الأرض استطاع أن يتعرف عليها وعلي آبائها وأمهاتها، مما أدهش الحاضرين.

لعله من المفيد أن نشير هنا إلى ما ذكره لي شخص آخر من البشاريين؛ فقد ذكر لي ذلك الشخص أن خبيرالأثر المتمرس يكفيه أن يرى فقط ثلث الخف ليصل إلى ما يحتاج إليه من التصور. وهذا النوع من تقصي الأثر مهم، وبالذات في حالة الإبل الضالة والمفقودة، وكذلك المسروقة التي يسلك بها اللصوص طرقاً جبلية وعرة لمحو أي أثر من آثار السرقة، ولإضفاء مزيد من التمويه والتضليل.

تحديد بعض عاهات وأمراض الحيوان من خلال قص الأثر

التعرف على عاهات أو أمراض الناقة أو الجمل المفقود عن طريق قيافة أو قص الأثر ليس من الأمور السهلة، وإنما يحتاج الأمر إلى تحليل للمعطيات، كما يقال في عصرنا الحديث. فمثلاً للتعرف على الحيوان الأعور يدقق في وضع الأخفاف على الأرض؛ فالخف على جانب العين السليمة يكون أكثر غوراً وظهوراً

على الأرض مقارنة بالخف المجاور للعين الأعور، وذلك بسبب الضغط الزائد والاعتماد عليه بصورة رئيسة. فضلاً عن ذلك فإن الحيوان الأعور لا يتحاشى الاصطدام بما يصادفه في الطريق من شجيرات أو كتل حجرية، ولا سيما تلك التي تكون في جهة العين العوراء؛ أما في جهة عينه السليمة فيتحاشى كل ذلك.

يعتبر العرج، بصرف النظر عن درجته أو سببه، من أسهل أنواع العاهات الجسدية التي يستطيع قصاص الأثر التعرف عليها. ففي هذه الحالة يلاحظ أن خف الرجل المصابة إما أنها لا تلامس الأرض مطلقاً (إن كان العرج كاملاً) وإن لامسته يكون ذلك بلطف شديد (في حالة العرج البسيط)، لذلك يظهر منها على سطح الأرض فقط جزء بسيط؛ وهذا يتوقف على مستوى العرج، وبهذا يستدلون على عرج الحيوان وتحديد الرجل المصابة ودرجة العرج أيضاً. فضلاً عن ذلك إن الطرق التي تحتوي على أعشاب تكشف عن العين العوراء، إذ أن الجمل الأعور يأكل من جهة واحدة في الطريق، حيث يرى بعينه السليمة.

تحديد بعض أمراض الحيوان من خلال الأثر

ويمكن للقصاص أيضاً تحديد بعض أمراض الحيوان من خلال سلوك الجمل أثناء سيره. ونستدل هنا بالجرب، وهو أهم أنواع الأمراض الجلدية في الإبل. والجرب، كما هو معروف، من الأمراض التي تتسبب في حكة شديدة لدرجة أن الحيوان يحك بجسمه كل ما هو متاح له من شجر أو حجر. وللتعرف على هذا المرض يقال إنه إذا وجدت آثار من وبر الجمل على أشواك الأشجار، فهذا يدل على أن الجمل المار بالمكان أجرب يحك جسمه باستمرار على الأشجار التي يمر بها.

تحديد هيئة الحيوان من خلال الأثر

تُحدد هيئة الجمل الذي يحمل أحمالاً ثقيلة من خلال أثره، إذ تكون أرجله الخلفية متباعدة، وتخلِّف ضغطاً غائراً في التربة، وهنا لا بد من التمييز بين مثل هذا الجمل والناقة الحامل التي تكون أخفافها الخلفية، بصورة مماثلة، أكثر غوراً في الأرض. وما يستدلون به في التمييز بينهما أن أخفاف الناقة أصغر من أخفاف الذكر، ومن ثم يمكن التمييز بينها وبين البعير الذي يحمل أحمالاً ثقيلة. إضافة إلى ذلك أن ما يميز أخفاف الناقة الحامل أنها لا تكون ملساء، بل تكون بها نتوءات يمكن مشاهدتها على سطح الأرض، وبهذه التغيرات أيضاً يستطيعون التمييز بين الحيوان الحامل وغير الحامل. وعند التفريق بين الذكر والأنثى يستدلون بأن خف الناقة أصغر نسبياً من خف البعير، إضافة إلى أن خفها يلامس الأرض بلطف، ولذلك فإن أخفافها أخف وقعاً على الأرض، في حين أن خف البعير يشغل مساحة أكبر على الأرض، ويكون أكثرغوراً في التربة. يضاف إلى ذلك أن الجمل يتبول إلى الخلف بينما الناقة يسيح بولها على رجليها، والناقة الحامل تنثر بولها على ذيلها فيتناثر على الجانبين. وإذا ظهر أثر لجمل وظهرت فيه الأرجل الأمامية مع الخلفية فهذا يدل أن الجمل يجري وهو يحمل شيئاً، ولكن إذا كانت خطواته منتظمة فهذا يدل أن الجمل طبيعي ولا يحمل شيئاً.

تمييز سلالات الإبل عن طريق الأثر

يستطيع خبراء الأثر التمييز حتى بين سلالات الإبل في المنطقة. يجدر التنويه هنا إلى أن سلالات الإبل الرئيسة في شرق السودان هي ثلاثة: **الأريريت**(السهلية)، **والمَأتْيات** (الجبلية)، **والشلقييت** (الساحلية). معيار التمييز هنا يكون على أساس بروز الأظلاف وحجم الأخفاف ووقعها على الأرض.

المأتيات مثلاً، لأنها إبل مناطق جبلية، فإن أخفافها أصغر، وكذلك أظلافها، والأخيرة نادراً ما يشاهد لها رسم على الأرض لصغرها. وبالمقارنة نجد أن فصيلة **الأريريت** لها أخفاف أكبر وأظلاف أطول. **والشلقييت**، في الجانب الآخر، تكون تكون أظلافها طويلة ومتباعدة، وبما أنها تمثل أثقل أنواع الإبل في المنطقة، فإن أخفافها مسطحة، وتحتل مساحة أكبر على الأرض، عكس ما عليه الأمر في حالة **الأريريت**.

طرق رعاية الإبل وأثرها على أثر الحيوان

وفي مجال رعاية الإبل، نجد أن بعض الأبالة يربطون حلمة أو حلمات من الضرع على عود صغير لمنع الحوار من الرضاعة، ولتوفير أكبر كمية من اللبن للأسرة، وتسمى هذه العملية في اللغة البجاوية **هَنُو**. ومثل هذه الناقة يمكن التعرف عليها لأن الحلمات المربوطة تكون ممتلئة بالحليب، مما يجعلها تضغط على الرِّجل المجاورة، ومن ثم نجد أن هذه الرِّجل تبتعد بعض الشئ عن الرِّجل الأخرى التي تجاور جانب الضرع الذي يرضعه الحوار.

وفي هذا السياق يحكى أن بجاوياً فقد ناقته التي ولدت قبل أيام فبدأ يبحث عنها مقتفياً أثرها وأثر حوارها الذي معها. وبعد مسافة طويلة من التتبع والرصد لاحظ أن شكل الأثر بدأ يتغير، وبالذات شكل الأرجل الخلفية وطريقة ملامستها للأرض، فتوصل بفراسته أن اثنين من حلماتها ربما مربوطتان، لأنه يعلم بالفطرة أن الحوار يرضع جميع الحلمات. وهنا بدأ يشك أن أحداً ربما قام بذلك. وعندما وصل إلى مكان ناقته شاهد فعلاً أن الحلمتين مربوطتان، وعلم من الشخص الذي وجد بحوزته ناقته أنه إحتاج إلى اللبن فربط حلمتين ليحلبهما وترك الحلمتين الأخريين لحوارها ليرضع. وعندما سأله عن وسيلة

تعرفه لذلك أخبره أنه لاحظ اختلافاً في حركة الرجلين الخلفيتين وطريقة ملامستها للأرض، ومن ثم استنتج أن يكون السبب هو ربط الحلمتين.

إن قيافة الأثر ليست قاصرة على البالغين ولا على التعرف على أقدام الإنسان أو أخفاف الإبل، بل إن بعض الأطفال الذين يكلفون برعاية الماعز والضأن لهم دراية مماثلة في تتبع الأثر كالبالغين والتعرف بدقة شديدة على حيواناتهم التي يرعونها، وبالذات الماعز والضأن.

قيافة البشر والحيوان

النوع الثاني من القيافة هو قيافة البشر أوالحيوان وما يستدل به في هذه الناحية هي الصفات والملامح الجسدية الخارجية، وهي أيضاً من المهارات الفردية المعروفة لدى البجا، وتعرف هذه الملكة أيضاً بالفراسة. ومن قصص العرب في هذا الجانب يحكى أن ابن أحد التجار كان في بعض أسفاره راكباً على بعير يقوده غلام أسود، فمر بجماعة فنظر إليه واحد منهم وقال: ما أشبه الراكب بالقائد، فوقع هذا الكلام في نفس ابن التاجر. عندما رجع إلى أهله اختلى بأمه وذكر لها هذه القصة فقالت أمه: "يا ولدي إن أباك كان شيخا كبيراً ذا مال وليس له ولد، فمن حرصي على المال مكنت هذا الغلام من نفسي فحملت بك، ولولا أن هذا الأمر ستعلمه غداً في الدار الآخرة لما اعلمتك به في الدنيا".(٧)

وللبجا أيضاً إلمام واسع بهذا الجانب؛ففي ما يخصُّ جانب الإبل نورد هذه الرواية: فالقصة كما رُويت لي أن شخصاً حلَّ ضيفاً على شخص آخر،

(٧) جريدة البيان الإمارتية، مصدر سابق.

وقام الأخير بواجب الضيافة والإكرام. وبعد فترة من الحديث والمؤانسة أخبره المضيف أن الجمل الذي جاء عليه هو جمله. فذهل الضيف من هذه المفاجأة وقال له: "ما هو دليلك على ذلك"؟ فرد عليه: "إن ناقة لي نفقت مباشرة بعد الولادة وعرفت أنها خلّفت وراءها حواراً، وسألت عنه في كل مكان فلم أجد من يدلني عليه، وفقدت الأمل فيه، ولكني لا أشك مطلقاً في أن الجمل الذي حضرت به اليوم إنما هو حواري المفقود وولد ناقتي التي نفقت منذ أكثر من خمسة أعوام، وأن صفاته وملامحه تطابق مطابقة كاملة لأمه". وأمام دقة هذه التفاصيل لم يجد الضيف مخرجاً من أن يسرد روايته هو مع هذا الحوار، فقال: إنه كان في بعض أسفاره إذ وجد حواراً صغيراً حديث الولادة في منطقة نائية فأشفق عليه وحمله إلى أهله وأرضعه في إبله، وأخبر من يعرفهم من الناس أنه وجد حواراً أوصافه كذا وكذا، وأن يخبروا من يرونهم من الناس حتى تصل هذه المعلومة إلى صاحبه ليأتي ليأخذه.[٨] ورغم إشهاره هذا عن الحوار إلا أنه لم يأت إليه أحد يدعي ملكيته طيلة هذه السنين المنصرمة. وأردف قائلاً: "والآن طالما أنك استطعت أن تتعرف على هذا الجمل رغم طول المدة، فلا أشك أنه لك". ثم سُويّ الأمر بأن أعطى البعير لصاحبه الأصلي نظير تعويض مالي تراضيا عليه يغطي نفقات ما صُرف عليه من رعاية وإعاشة خلال الفترة الأخيرة.

الجمع بين قص الأثر والفراسة

هناك من يجمع بين قص الأثر والفراسة أو التعرف على ملامح الحيوانات الخارجية. وأساس هذه المقدرة هو المعرفة الكاملة بالقطيع، بصرف النظر

(٨) هذه واحدة من العادات الحميدة التي يحرص البجا عليها في تعاملهم مع الحيوانات المفقودة والشاردة.

عن أعمارها وأنواعها. يظهر ذلك جلياً في القصة التالية التي رواها لي واحد من شيوخ البجا. يقول هذا الشيخ إنه كان يعرف أثر إبله كلها حتى حديثة الولادة منها، وحكى لي القصة التالية: ضاعت لي بكرة (الناقة اليافعة) لم أوسمها لصغر سنها، وبعد بحث طويل وجدتها بعد ما يقارب العامين في إبل لقبيلة أخرى على مسافة بعيدة منا. وعندما رأيتها فإذا بها سمنت وكبرت وتغير لون شعرها، ولكن بالرغم من ذلك استطعت التعرف عليها منذ الوهلة الأولى. وعندما أحضرتها إلى أهلي أنكروا علي ذلك وقالوا لي إني أتيت إليهم بناقة غير ناقتي فأجبتهم قائلاً (بأبيات من الشعر البجاوي):

تِذَنْبِ تِسِكَاتِيدَ	tithanbi tisikaateeda
تَأَبَ شِبِي سَكَنْيِيكْ	t'aba shibbe sakanyeek
إِفْتِ رِهِيتِتْ هَمُويْ بُؤُوسِيدَ	efti reheeteet hamoy b'uusiida
إِينْقَوَبْ كَالْوَوْ سَيَاسِيبْ	eengwab kalaawiw sayaasiib

المعنى:

إذا كنت أسير في هذه الوديان والخيران بحثاً عن بكرتي متتبعاً أثرها، كيف أتلفت متردداً هنا وهناك ولا أستطيع التعرف عليها حين تَمْثل أمامي بالرغم من تغير لونها وشعرها، وأنا الذي لا أتردد لحظة في التعرف عليها، ليس على شكلها فقط وإنما على آثارها وآثار آبائها وأجدادها.

خاتمة

لقد رأينا في هذا المقال أن تقصي آثار الإبل من الملكات الفردية التي اشتهر بها بعض مربِّي الإبل عند البجا، ويستغلونها في تقصي آثار حيواناتهم

الهاربة والشاردة والمنهوبة. ومن خلال الأثر يمكن التعرُّف على الصفات الجسدية والتغيرات التي طرأت عليه كالعرج والعور والحمل والمرض والجنس والسلالة وغيرها، وذلك بالتمعن في وقع الخف على الأرض ورسمه والمسافة بين الخطى. غير أن ما يتفوقون فيه على غيرهم من رعاة الإبل في الصحراء هو أنهم في المناطق الجبلية، حيث لا مجال لرسم الخف، يستطيعون تمييز الحيوان الصاعد من الهابط استناداً على كمية الحجارة المتدحرجة. وكل هذه المهارات تحتاج إلى إلهام رباني، وذكاء فطري ثاقب، وخبرة طويلة، وإلمام واسع بالبيئة ومحتوياتها من أرض ونبات.

في تجزئة المجزأ: ظهور سودان ثالث

عبد الغفار محمد أحمد

مستخلص: تقاس الدول المتعثرة بعدم مقدرتها على إدارة رأسمالها الاجتماعي، وعدم قدرتها على تقديم الخدمات الأساسية لمواطنيها؛ وقد اعتبرت بعض التقارير السودان واحداً من هذه الدول. لقد أخذ سكان الأطراف (المهمَّشون) الأمر بأيديهم، وظهرت القبلية، وجارتها في ذلك النخب الصفوية، فظهرت بوادر تقسيم البلاد منذ الأيام الأولى للاستقلال. وبعد انفصال الجنوب كان لعدم الفهم الصحيح لمصطلح "المشورة الشعبية" أثره في عودة الحرب إلى مناطق النيل الأزرق وجنوب كردفان، إضافة إلى تزعزع الأمور في دارفور، مما قاد إلى ظهور سودان ثالث يشمل المناطق الحدودية الواقعة بين السودان وجنوب السودان، ويضم معظم الأراضى الزراعية والثروة الحيوانية والبترولية الكائنة في الدولتين، إضافة إلى تنوعه الاجتماعي. يمكن أن يكون مورداً للغذاء للدولتين معاً إذا أحسنا إدارته، بل ويلعب دوراً على الصعيد العالمي، وأما إذا أُهمل فقد يقود إلى تجزئة المجزأ.

Abstract: The countries that are slow and suffering during development are measured by their lack of ability to direct their social capital and lack of extending basic services to their marginal population in the fringes. In the Sudan case, the elite and tribal leaders have had this attitude since independence. The separation of South Sudan and failure to understand what is meant by the "Popular Consultation", together with the troubles in Darfur, all this has led to the return of the war in the Blue Nile and South Kordofan states and, thus, emergence of a third Sudan covering the border areas between the Sudan and the South Sudan. This third Sudan includes most of the arable lands, livestock and minerals in the two countries. If and when this third Sudan is managed in a proper way in agreement between the two countries, it can feed the two of them and the region may contribute positively worldwide. However, failing to do so may lead to more conflicts.

كلمات مفتاحية: السودان الثالث، النخب، التهميش، التنوع، المشورة الشعبية.

تمهيد

تشير بعض التقارير العالمية إلى السودان كواحد من الدول المتعثرة بعد الصومال واليمن وجنوب السودان، وذلك عندما ننظر إلى الفشل السيادي والذي يشير إليه عدم هيمنة الدولة على الحياة في معظم أجزاء القطر، إضافة

إلى عدم قدرتها على الالتزام بالقيام بأداء واجبها حيال مواطنيها في مجال الأمن الغذائي والصحي والتعليمي. ويلاحظ أن هذا الفشل يعود إلى ضعف رأس المال الاجتماعي والسياسي بجانب التدهور الاقتصادي. وفي كل هذا تكون النخب السياسية هي المسئولة عن تدهور الأوضاع لانعدام الرؤية الصائبة لديها ولتفكيرها في ذواتها دون رجوعها لمواطنيها. زد على ذلك أن هذه الدول تقوم بتصدير رأس مالها الاجتماعي في عدة أنواع من الهجرة الشرعية وغير الشرعية لدول أخرى في الإقليم وخارجه.

وفي هذا الأمر لا يختلف السودان كثيراً عن معظم دول القرن الإفريقي والشرق الأوسط، الأمر الذي يجعل المهمشين من سكانه لا يجدون بديلاً إلا أخذ القوانين بأيديهم، ويستعيضون عن هيبة الدولة بطرح نظمهم المحلية بديلاً لها. ويحمل معظم المهمشين من السكان في السودان السلاح في وجه الدولة وينازعونها السيطرة على الأقاليم البعيدة عن المركز. وفي مثال السودان بعد انقسامه إلى قطرين في عام ٢٠١١م تذكرة لما قد يصل إليه الأمر في كل من القرن الإفريقي والشرق الأوسط. فكل الدلائل تشير إلى أن الأمر في السودان بعد انفصال جنوبه سيؤدي إلى ظهور سودان ثالث.وهنا يحاول الطرح أن ينظر في مستقبل المناطق التي تقع في جنوب جمهورية السودان وشمال جمهورية جنوب السودان، ما يمكن أن يحدث في تقسيم المقسم، وأن الذي يدور الآن ما هو إلا بداية لما يمكن أن يكون عليه الوضع في مستقبل الأيام.

الأطار العام

العودة للحرب في جبال النوبه في ٥ يونيو ٢٠١١ وما تبعها من صراع بعد مدة قصيرة في ذلك العام في إقليم النيل الأزرق، والحرب الدائرة اليوم بين المجموعات الإثنية في الحركة الشعبية قطاع الشمال، بالإضافة إلى ما يدور من

صراع في إقليم دارفور بدءاً منذ عام ٢٠٠٣ وما زال، وظهور بؤر صراع جديدة في أنحاء مختلفة من السودان،كل هذا أعاد إلى الساحة إمكانية تقسيم المقسم وتجزئة المجزأ. ورغم ما يدور فإن نظام الإنقاذ[١] الذي يحكم السودان الآن يريد أن نصدق أن عهد التنوع الثقافي والاقتصادي والسياسي والعرقي قد انتهى بانفصال جنوب القطر عام ٢٠١١.[٢]

لو عدنا لسبر غور هذه الصراعات ولعودة النزاع والحروب واستنطقنا تاريخ التنمية غير المتوازنة وقضايا التهميش عبر التاريخ لكان بالإمكان الإلمام بمدى الغبن الذي تضمره المجموعات المهمَّشة البعيدة عن مراكز صنع القرار، وهي محقّة في ذلك. وتاريخ المسكوت عنه، خاصة التاريخ الأسود لقضايا الرق وأسلوب التعامل مع سكان بعض المناطق النائية، يحدثنا عن ذلك،خاصة نوعية المهن التي تساق إليها بعض الفئات من هؤلاء المهمشين ومثال ذلك، وحتى لوقت قريب، عمال الصحة ونظافة القرى والمدن.[٣]

(١) يطلق اسم الإنقاذ على نظام الحكم الذي تقوده الجبهة الإسلامية منذ عام ١٩٨٩. هذا وقد أسلمت الجبهة الإسلامية هذه القيادة للحزب الحاكم الذي أطلق على نفسه اسم المؤتمر الوطني وأصبح المتحكم الرئيسي في الوضع السياسي.

(٢) عندما حدث التصويت على انفصال الجنوب قام رئيس أحد الأحزاب بذبح ثور أسود احتفالاً بالحدث. كما قال رئيس الجمهورية بعد أسبوع عند مخاطبته لجموع في القضارف بأن التنوع قد انتهى وأصبحنا اليوم أمة عربية مسلمة.

(٣) لمزيد من التفاصيل حول المسكوت عنه راجع كتاب: تجارة العاج الأسود لعبد الغفار محمد أحمد وعبد الجبار عجيمي، صادر عن دار مدارك للنشر، الخرطوم (٢٠١٦). ويلاحظ أيضاً أن تشكيل العمالة في النظافة وعمال الدرجات الدنيا من "الصحة" تقوم بها مجموعات إثنية محددة من المهمشين.

أثبت التاريخ الحديث الفشل التام للنخب القابضة على زمام الأمر منذ الاستقلال في فهم أبعاد التنوع ومعرفة أنواعه وأسباب تنافر مكوناته التاريخية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية. ومن هذا المنطلق كان بالإمكان معرفة مدى الركون إلى القبيلة وكيف تم استخدامها عند بروز الدولة الحديثة في شكل الإدارة الأهلية في عهد الاستعمار، ومدى فشل النخبة في إيجاد البديل الملائم لها عندما فكرت في الاستغناء عنها في عام ١٩٧٠.(٤) هذا إلى جانب صور أخرى لدور المستعمر في محاولة إلحاق جوانب الحياة بالتطور الذي عمَّ معظم البلدان التي كانت تحت سيطرته، ومما ترك خلفه من نظم لخدمة مجتمعها. ولو أن ذلك تمت متابعته دون الالتفات لما كان يهدف إليه المستعمر من نشاط ارتبط بأهدافه لكان ذلك أجدى.

تشير هذه الاسئلة وغيرها إلى موضوع واحد، ألا وهو افتقاد النخب التي جاءت بعد الاستقلال للرؤية الواضحة والتخطيط للمستقبل، الأمر الذي كان في مقدوره أن يصل بالسودان إلى ما وصلت إليه أقطار أخرى ليست لديها من الموارد بعض ما تزخر به أنحاء القطر الذي كان، قبل عام ٢٠١١، يمثل القارة بحالها. لقد كان كل ما جاد به ذهن تلك النخب عند مغادرة المستعمر هو أن تستولي على زمام الأمر، كما طرحت الشعار الذي يشير إلى انعدام الرؤية والذي ينادي بـ"تحرير لا تعمير". ولهذا لم يكن غريباً أن تفشل تلك النخب في تحديد مسارها، وأن يكون التهميش هو طابع الحياة في الأجزاء البعيدة عن مراكز

(٤) قرار إلغاء الإدارة الأهلية كان مطلباً أساسياً عند قيام انقلاب نميري عام ١٩٦٩ دون دراسة لما يمكن أن ينجم عن ذلك القرار.

النخب. هذا بالإضافة إلى أن هذه النخب قد انشغلت بالصراع على كراسي الحكم، مما قاد إلى فساد السيرة وعدم الارتباط بالقواعد في الأرياف.

وعندما اتيحت الفرصة لمراجعة الأمر والنظر في بعض مطالب فئة المهمشين باشتراكهم في إدارة التنوع والمشاركة في الحكم واتخاذ القرار، لم يستثمر هذا الأمر. وضاعت الفرصة الأولى عندما طالب ممثلو الجنوب بالحكم الفيدرالي (Federation) فجر الاستقلال (١٩٥٥)، ونكست النخب الشمالية بعد أن وعدت، ثم كان أن فشل مؤتمر المائدة المستديرة عام ١٩٦٥، رغم إقراره بالتميز في التعامل مع أهل الجنوب[٥] ومدى شعور هؤلاء بالغبن الذي طالهم من تصرف نخب المركز وأهل الشمال، وعلى وجه العموم مشاركة نخب أهل الشمال تاريخياً في تجارة العاج الأسود وعدم الاعتذار عن تلك الحقبة. تبع سير الأحداث هذا نكسات عدة فيما تحقق من بوادر نجاح جزئي بعد ذلك بأعوام قليلة، أي عام ١٩٧٢ والعشرة أعوام التي تلتها من حكم أقليمي جاء نتيجة لاتفاقية أديس أبابا التي لعب فيها مجلس الكنائس العالمي دوراً مقدراً. إلا أن هذا الحكم الإقليمي لجنوب السودان بالرغم من أنه منح الجنوب قدراً وافراً من حرية التعبير والتميز السياسي قياساً بأقاليم السودان الأخرى، إلا أنه، كما يوضح بيتر أدوك في كتابه: *The Politics of Liberation in South Sudan: An Insider's View*، كان

(٥) لتفاصيل ما تم نقاشه في هذا المؤتمر وعن المشاركين فيه انظر: محمد عمر بشير Mohmed Omer Bashir (1968): *The Southern Sudan: Background to Conflict*. London: Hurst co. ومدثر عبد الرحيم (١٩٧٠): مشكلة جنوب السودان: طبيعتها وتطورها وأثر السياسة البريطانية في تكوينها، الدار السودانية، الخرطوم – ومحجوب محمد صالح (٢٠٠٦): أضواء على مشكلة جنوب السودان: من مؤتمر جوبا إلى اتفاقية نيفاشا، مركز محمد عمر بشير، جامعة أمدرمان الاهلية، امدرمان.

حكماً بدون أسنان اقتصادية؛ فقد كان المركز والنخب العسكرية في الخرطوم هي المتحكمة في توزيع الثروة، ولم تربط ذلك بما منحته لجنوب القطر من بعض حرية التعبير وسهولة الحراك السياسي.(٦)

النخب والتهميش

لقد فشلت النخب السياسية قبل ذلك،وبعد الاستقلال مباشرة، في إدارة التنوع الثقافي والاقتصادي، مما قاد إلى التهميش في مختلف أركان المجتمع السوداني، وعضد هذا الفشل عدم وجود رؤية سليمة ومتكاملة مما يمكن أن يحدث والبلاد أصبحت في أيدي أبنائها. وقاد فشل النخب السياسية بقيادة أحزابها إلى تسليم مقاليد الأمور إلى النخب العسكرية التي كانت بدورها تفتقر إلى الرؤية الواضحة والصائبة التي يمكن أن تقود بها البلاد إلى تنمية متوازنة تنفي مظاهر التهميش. وقد قاد هذا، مع تفاقم الحرب في الجنوب، إلى قيام الشعب بثورة على النظام القائم ودحر العسكر وتسليم السلطة مرة أخرى لقيادات الأحزاب والتي فشلت مرة أخرى في طرح أفكار تقود إلى الخروج من مأزق التردد في حل مشاكل القطر بصورة سليمة. هذا ما جعلها تكرر فشل من سبقوها وتسليم السلطة مرة أخرى لدكتاتورية عسكرية عادت هذه المرة بلبوس

(٦) يمكن الرجوع لتفاصيل أكثر حول النقد الذي قدمه بيتر نيابا وإلى توضيحه لما منحته اتفاقية أديس أبابا عام ١٩٧٢ من حكم ذاتي في إطار السودان الموحد من مجلس أعلى للجنوب يتمتع بقدرات تنفيذية ولجنة خدمات مستقلة بالإضافة إلى مجلس إقليمي بقدرات تنفيذية؛ انظر:
Peter A. Nyaba (1997): *The Politics of Liberation in South Sudan: An Insider's View*. Kampala, Uganda, Published by: Fountain publishers, p. 19.

أيدولوجية يسارية.[٧] وقاد هذا، كما أسلفنا، إلى حل وقتي لمشكلة الجنوب، وليس لمشكلة السودان، إذ بقي التهميش كما كان. هذا وقد قاد انعدام الرؤية لكون المشكلة تعم القطر وترتبط بكون التهميش السياسي والاقتصادي وعدم التوازن في توزيع الثروة والسلطة، وأن كل هذا ما هو إلا نتاج عدم الإلمام بالطريقة المثلى لإدارة التنوع الثقافي والاجتماعي في كل أنحاء القطر، الأمر الذي مهَّد الطريق لتجربة أيدولوجية، هذه المرة، ذات صبغة يمينية طرحت برنامجاً كان وظل أبعد ما يكون عن حل الإشكال القائم، بل وفشل فشلاً ذريعاً عندما ظل يحاول طرح برنامج إقصائي لا يؤمن بأن هناك تنوعاً في عناصر المجتمع.[٨]

الجبهة الإسلامية وإدارة التنوع

حاول نظام الإنقاذ الذي قادته الجبهة الإسلامية والحركة الشعبية لتحرير السودان بقيادة جون قرنق إلى الوصول إلى اتفاق يحقق وقف الحرب عندما

(٧) كان وصول القوات المسلحة للحكم في نوفمبر ١٩٥٩، حيث تسلم عبود مقاليد الحكم من الأحزاب، وبعد مرور سنوات، أي في عام ١٩٦٤، حدثت ثورة أكتوبر التي أشعلتها مشكلة جنوب السودان، وعبرها تمكنت الجماهير الشعبية من إسقاط حكم العسكر وأتت بجبهة الهيئات للتمثيل. إلا أن الأمر لم يستمر طويلاً قبل أن تستولي الأحزاب مرة أخرى لتكرر فشلها السابق، وتأتي قيادات عسكرية بدأت بأيدلوجية يسارية،إلى السلطة بقيادة جعفر محمد نميري عام ١٩٦٩ يعاونه الحزب الشيوعي السوداني خلال سنوات حكمه الأولى.

(٨) وبعد فشل الأحزاب السياسية عند إسقاطها لنظام النميري عام ١٩٨٥م جاءت حكومة الصادق المهدي فيما يسمى بالفترة الديمقراطية الثالثة، ثم جاءت عبر انقلاب مجموعة أخرى قوامها هذه المرة حزب واحد، وهو الجبهة الإسلامية عام ١٩٨٩، وطرحت مشروعها "الحضاري" للحكم عبر الشريعة الإسلامية، كما تدعي، وقد أثبتت الأيام خطأ تلك الفكرة.

شعرا بألا منتصر فيها. وهنا كانت اتفاقية السلام الشامل عام ٢٠٠٥، وهي التي وصفها أحد منتقديها بأنها ليست شاملة أو منصفة.[٩] ودون الدخول في تفاصيل هذه الاتفاقية التي أصبحت على كل لسان، والتي اعتمدت على شخصية من وقعها. وعندما توفي قرنق في جانب الجنوب، رغم إصراره بأن المشكلة ليست مشكلة جنوبية شمالية وإنما هي مشكلة السودان عموماً بمختلف تكويناته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، وتناقص حجم الموَقع في الجانب الآخر، تم الفشل الكامل للحل الأمثل وإدارة التنوع، وهنا كان حظ الآخرين شمالاً وجنوباً من عديمي الرؤية السليمة لمعالجة التنوع وإدارته. وقد بادرت مجموعة صغيرة مستقلة التفكير[١٠] قبل عام من نهاية المدة المحددة للاتفاقية، بدراسة ما نفذ وما تبقى من تلك الاتفاقية من خلال الدراسات التي قامت بها اللجنة الدولية المتابعة لهذه العملية ومقرها الخرطوم، وجدت هذه المجموعة أن ما تم تنفيذه قد يقدر بخمسة وثمانين في المائة من جملة المتطلبات، إلا أن الخمسة عشر في المائة المتبقية هي في تقدير المجموعة تساوي أو تزيد في وزنها عن

(٩) جاء هذا الوصف من بونا ملوال، أحد أعمدة نظام نميري، وكان يقف على مسافة من الحركة الشعبية لتحرير السودان بقيادة جون قرنق، وقد لخص أفكاره في كتيب له فيه نقد للاتفاقية، وهو بعنوان اتفاقية السودان الأخيرة للسلام: الاتفاقية غير عادلة و لا شاملة (دراسة نقدية)، مركز عبد الكريم ميرغني والخرطوم عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٥، باللغتين العربية والإنجليزية في مجلد واحد.

(١٠) بادرت هذه المجموعة، وكاتب هذه الورقة عضو فيها، بطرح فكرة ضرورة مد فترة تطبيق الاتفاقية ولو لعام واحد حتى يتسنى تنفيذ ما تبقى فيها من أشياء حسب ما جاء في تقرير لجنة التقييم التي كونتها حكومة الوحدة الوطنية بعد توقيع الاتفاقية في نيروبي ٩ يناير ٢٠٠٥. وعند الاتصال بالأحزاب في الحكم والمعارضة تفاوتت الآراء بين من يرون عدم التمديد وأولئك الذين صمتوا ولم يدلوا برأي.

تلك التي نفذت. ومن هنا طرحت المجموعة ضرورة التريث في تاريخ اكتمال التنفيذ والوفاء بمستحقات الاتفاقية. غير أن التردد قد ساد عند البعض وقيل للمجموعة إن هذه الاتفاقية أشبه بالكتاب المقدس، ولذا فهي غير قابلة للتغيير في نقاطها أو موعد تنفيذها.

وكان نصيب المنطقتين في تلك الاتفاقية هو بروتوكول مبهم جاء لترضية المشاركين في الحركة من النيل الأزرق وجبال النوبه. وهو، كما تقول هيلدا جونسون في كتابيها *Waging Peace in South Sudan: The Untold Story Sudan*، وكان طرحاً لمصطلح "المشورة الشعبية" الذي لم يُعرف بصورة دقيقة، وقد طلب قرنق من هيلدا أن تقوم بتسويقه لتلك القيادات. ورغم ما سبق ذلك المصطلح من تدريب وتوعية، إلا أن كل ذلك كان قد انصب في خانة تأكيد التباين بين سكان تلك المناطق أكثر من خلقه لوحدة جاذبة بين مكوناتها الإثنية. وعندما جاء موعد وضع هذه المشورة للاختبار كان مصيرها الفشل، إذ اختلف السكان في تفسيرها؛ فقد رأى البعض أنها تتيح لهم الخيار بين تقرير المصير أو القبول بالأمر الواقع، بينما يرى البعض الآخر أن على الأمور أن تسير على ما كانت عليه. وكان نصيب الحوار الذي دار هو الفشل، مما أثلج صدر النظام في المركز، إذ أن هذا الفشل قد وقع برداً وسلاماً على النخب المسيطرة على زمام الحكم ومتحكمة في تقسيم الثروة والسلطة إقليمياً ومركزياً، ووبالاً على أهل الشأن من سكان المنطقتين. كما كان من بوادر فشل الحركة الشعبية في إدارة الحوار، معالجة التهميش وسط المجموعات الطرفية في كل من النيل الأزرق وجبال النوبة، إذ لم يكن لقيادة الحركة استراتيجية واضحة سوى شعار "السودان الجديد".

السودان الثالث

كانت نتائج الحراك الدامي في دارفور تمثل الدليل على إمكانية تقسيم المقسم، خاصة وأن الجنوب كان يسير في اتجاه الانشطار عن بقية الأجزاء، وعندها كان واضحاً بروز سودان ثالث بين الشمال والجنوب، أو بصورة أدق، جنوب الشمال وشمال الجنوب، وهو مأوى لمجموعات مهمشة تقع جغرافياً بين خطي عرض ٩ و١٢، وهي تضم مجموعات تعايشت عبر القرون، رغم ما كان بينها من تباين ثقافي ومعتقدي، وتعتبر هذه المجموعات مكملة لبعضها البعض سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.(١١) تبدأ الحدود الغربية لهذا السودان الجديد من تشاد وإفريقيا الوسطى وتمتد شرقاً حتى الحدود مع الجنوب الغربي من إثيوبيا، وهي بذلك تشمل جنوب دارفور وجنوب كردفان بما فيها جبال النوبه وجنوب النيل الأزرق ويقابلها في جمهورية جنوب السودان كل من شمال بحر الغزال والجزء الشمالي من ولاية الوحدة وولاية أعالي النيل لما للمجموعات التي تقطنها من تعايش سلمي وتشابه معيشي واقتصادي وصلات اجتماعية وطيدة مع المجموعات عبر الحدود. ويمكن النظر إلى كل هذه المجموعات، رغم إصرار المراكز في كلتا الدولتين على وضع حدود فاصلة بينهما، إلا أن التهميش، وليس التباين الاجتماعي والثقافي، كما تراه النخب، هو فقط الدافع لبروز سودان ثالث هنا.

لهذا السودان الجديد تاريخ متجانس وتتشابه علاقته المتناقضة مع مراكز القوى في الدولتين. وإذا ما حاولنا رصد العلاقة، نجد أن هناك الكثير

(١١) أنظر تفاصيل هذا العرض في كتاب:
Gunnar Sorbo and Abdel Ghaffar M. Ahmed (2013): *Sudan Divided: Continuing Conflict in a Contested State*. USA: Palgrave Macmillan.

من المسكوت عنه في حديث النخب الشمالية؛ فهي تحاول في معظم الأحيان تجاوز الغبن التاريخي الناتج عن الممارسات غير الإنسانية التي سادت إلى حين. وعموماً فإن المكونات الديموغرافية للمجموعات السكانية لهذا السودان الثالث قريبة الشبه، وهو متعدد الإثنيات مترابط العلاقات ثقافياً واجتماعياً، مع تنوع مكمِّل لبعضه البعض في سبل كسب العيش والتعاون في الإنتاج؛ ويمكن هنا الإشارة على سبل المثال للتعاون الزراعي بين الحمر ودينكا ملوال.[١٢]

ورغم كل هذا فإن علاقة هذا الجزء من السودانيين تتسم بالتنافر مع المركز في الشمال والجنوب، ومع الأقاليم الوسطى في الشمال خاصة، إذ أنها لم تنل إلا الفتات حتى من القدر اليسير من التنمية التي عمت الوسط في عهد الاستعمار البريطاني المصري وفي الحقب التي تلته. وعلى سبيل المثال عندما قام مشروع الجزيرة في وسط السودان جاء دور المهمشين متأخراً. وقد كان نصيب الجنوب من التنمية في العهد الاستعماري هو مشروع الزاندي للتنمية المتكاملة عام ١٩٥٢ والذي لم يستمر طويلاً ،إذ إنه انهار مع بداية الحرب في أيام الحكم الذاتي عامي ١٩٥٤-١٩٥٥م. وتبع ذلك اغتصاب الأرض من المهمشين في النيل الأزرق وجنوب كردفان لقيام المشاريع الزراعية في سنوات الحكم ما بعد الاستقلال بواسطة النخب المستعربة غير المقيمة في تلك المناطق بدعم من المركز في عاصمة القطر.[١٣]

(١٢) وضح هذا في دراسة قُدمت لمكتب الـUNDP في السودان عند تقييم مشروع الأضية بغرب السودان عام ١٩٩٧.

(١٣) للمزيد حول هذا الموضوع انظر شريف حرير وتاريه تفيدت (بدون تاريخ): السودان: الانهيار أو النهضة، ترجمة مبارك علي عثمان ومجدي النعيم، مركز الدراسات السودانية، القاهرة. انظر أيضاً: Conrad G. Rening (1966): *The Zande Scheme: an Anthropological Case Study of Economic Development in Africa*. Evanston, Illinios,USA: Northwestern University Press.

ويعتبر هذا الجزء من دولتي الشمال والجنوب الأكثر ثراءً في موارده الطبيعية، وفيه ما يمكن أن يكفي الدولتين من غذاء ويمكن أن يغطي فائضه إقليمياً ويتجاوز ذلك في دعم غذاء العالم. كما أن به ثروة حيوانية هي الأكثر في القطرين وإقليم شرق إفريقيا رغم ضعف مردودها الناتج عن ما هو سائد من قيم وتقاليد تمجد الكم وليس الكيف. ولم تبذل الدولة في القطرين جهداً يذكر عبر وسائلها، خاصة التعليمية في تحديثها. يضاف إلى ذلك أن هذا الإقليم هو مصدر أهم المحاصيل النقدية من صمغ عربي وفول سوداني، بجانب وجود معظم الثروة البترولية في أراضيه. وإذا ما فكرنا في تنوعه الثقافي والمعتقدي، فنجد إنه يزخر باللغات واللهجات الناتجة عنها، كما أنه يعد موطناً للديانات السماوية من إسلام ومسيحية، بالإضافة إلى كريم المعتقدات.

تشترك أجزاء السودان الجديد أو السودان الثالث في النظرة الدونية التي يمارسها نحوها سكان الوسط عامة، وعلى وجه الخصوص النخب في ذلك الجزء من القطر. وقد ساعد الاستعمار بما سن من قوانين تقود في مجملها لتكريس الفرقة والتهميش بين سكان تلك المناطق قياساً لما عليه حال الوسط والشمال. ومن هذه القوانين، قانون المناطق المقفولة وما تلاه من قوانين منذ عام ١٩٢٢. وورَّثت هذه النظرة الدونية للآخر بعض النخب الحاكمة دون ردها لأسبابها أو التمعن في تاريخها. بل أنها، وبعد انفصال الجزء الجنوبي من القطر، جعلت هذه الفئة الحاكمة الحدود بين الدولتين في شمال السودان وجنوبه عصية على التجاوز بإصدار قرار المصادرة والإعدام لكل من تحدثه نفسه بالمتاجرة ونقل الغذاء للدولة الحديثة. كما طالب البعض بحرمان من كانوا قبل أيام مواطنين أصليين للقطر من الخدمات الصحية، وعانى من هم

من أصول مختلطة من الاستمرار في ممارسة نشاطهم اليومي. وقد سادت هذه الأمور إلى حين.[١٤]

تعني الأحداث الأخيرة الحركة الشعبية قطاع الشمال أن هناك الكثير مما يمكن أن يحدث من تطور في كل القطاع الذي يكوِّن السودان الجديد الثالث. فالعلاقات بين سكانه والمواقف السياسية لقياداته قابلة للمراجعة وإعادة الترتيب إذا ما كانت واعية بالأسباب التي تجمع هذه الإثنيات المختلفة التي عانت، وما زالت تعاني، من التهميش والنظرة الدونية من النخب في مراكز اتخاذ القرار، وعدم إشراكها فيما يمس حياتها اليومية.[١٥] رغم الضبابية الراهنة والمواقف المترددة لمعارضة نظام الإنقاذ، بل وتردد النظام نفسه، إلا أن التفاؤل بمستقبل معافى وسليم هو المطلوب من الجهات التي يهمها الأمر. على أن هذا التفاؤل يجب أن ينبني على أسس متينة يساهم فيها إنسان هذا السودان الثالث سواءً كانت هذه الأسس اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية. وقد نرى الآن ملامح من ذلك في قيام أسواق السلام وتعاون الإدارات الأهلية

(١٤) طالب نائب الرئيس وقتها علي عثمان محمد طه باستخدام القتل "shoot to kill" في وجه كل من يحاول إيصال مواد غذائية وغيرها لجنوب السودان. كما صرَّح كمال عبيد (وهو وزير الإعلام في ذلك الوقت والناطق الرسمي باسم الحكومة) بأنه لن تصرف "حقنة" واحدة لأي جنوبي في الشمال بعد التصويت على الانفصال. هذا وقد عانى البعض الأمرين، وفقدوا وظائفهم في مكاتب الدولة لا شيء إلا لأنهم من أم جنوبية وأب شمالي أو العكس.

(١٥) انظر تقرير سليمان بلدو حول ما يدور في الحركة الشعبية لشمال السودان مسودة مقدمة للنقاش بعنوان: "دور الفعل إزاء الصراعات الدائرة بين القيادات داخل الحركة الشعبية لتحرير السودان –شمال".

والسكان في الخط الذي يراد له أن يكون فاصلاً بين الشمال والجنوب.[١٦] كما أن عودة سكان المناطق التي اشتعلت فيها الحرب الأهلية في الجنوب وأصبحت غير آمنة - عودتهم إلى الشمال، وغياب دور الدولة في كل ذلك ليدل على أن الأمر يمكن أن ينصلح عندما يأخذ الإنسان بترتيب نظم حياته.

تقرير المصير

قاد فصيل في الحركة الشعبية/قطاع الشمال مقترح تقرير المصير، ومن تجربة السودان السابقة فقد كان مرفوضاً من جانب قطاعات أخرى من النظام الحاكم. ويحق لنا أن نتساءل لماذا نرفض الدعوة لتقرير المصير؟ يتساءل الأستاذ محجوب محمد صالح في بداية الفصل الأول من كتابه "أضواء على مشكلة جنوب السودان" عن شعار تقرير المصير فيقول في الصفحة السابعة:-

أي تقرير مصير؟ أهو مدخل للانفصال ترى الحكومة أنه يريحها من صراع المشكلة وصراع الأديان؟ أم أسلوب لتحقيق (السودان الجديد) الذي تحلم به الحركة الشعبية؟ أم تراه وسيلة لتحقيق حلم (استقلال جنوب السودان) الذي كان شعاراً لبعض الحركات؟ أم تراه سيكون-حقاً وصدقاً - طريقاً لتحقيق الوحدة الطوعية كما يدعي المدافعون عنه؟ تعددت الرؤى واختلفت التفسيرات.[١٧]

كل هذه الاسئلة كانت جائزة في عام ٢٠٠٦ قبل حدوث التصويت عام ٢٠١١ على بقاء الجنوب في وحدة مع الشمال أو الانفصال وتكوين دولة جديدة. وقد مثلت وفاة قرنق غير المتوقعة فرصة للمنادين بالانفصال في صفوف الحركة

(١٦) معلومات شفاهية من نقاش مع عبد المجيد يحيى وأحمد الحسب من جامعة الدلنج حسب ما كان عليه نشاطهم في جنوب كردفان.

(١٧) محجوب محمد صالح، مرجع سابق، ص ٧.

بتوجيه قرار تقرير المصير في ذلك الاتجاه، وقد ساعد في ذلك دور بعض عناصر النخب في الشمال وأخذها بضرورة فصل الجنوب غير المسلم وغير العربي. وقد حقق هذا حلم استغلال الجنوب لمن ينادون به دونما تفكير فيما سيحدث بعد فورة الاستقلال، ومدى إمكانية إقامة دولة في تلك الربوع، وهي تفتقر إلى كل المقومات من بنى تحتية وغيرها.

إن ما تبع فصل الجنوب من أحداث يجعلنا أكثر ميلاً لأن يكون طرح فكرة تقرير المصير جزءاً من المزايدات السياسية التي اعتدناها في الصراع السياسي في السودان؛ فما من سياسي يمكن أن يسير في هذا الخط حتى نهايته. فالسودان الثالث يحتاج إلى التعاون مع الشمال ويحتاج إلى التعاون مع الجنوب، رغم ما يكتنف نخب مركزيهما من تناقض، كما أنه يحتاج لكليهما في تعامله مع العالم الخارجي. إن التقاء المجموعات الإثنية فيما سمته اتفاقية السلام الشامل بالمنطقتين وأبيي، بالإضافة لبعض المهمشين في جنوب دارفور والمناطق الشمالية من جنوب السودان لكفيل بخلق هذا السودان الثالث الذي سيكون في مقدوره منازلة المركز والدعوة لمعادلة صادقة فيها الأخذ والرد بحوار جامع صادق يوضح الجميع فيه رأيهم في إدارة التنوع ودحر الفقر والمرض والجهل وإتاحة الحرية والتعبير للجميع.

إن ما يجري في السودان الثالث اليوم هو أخذ إنسانه بزمام الأمر بيده والاستغناء عن الدولة، خاصة وأن نخبها غير مواكبة لما يحدث من تضارب لمصالحها الخاصة مع مطامح إنسان السودان الثالث بمختلف مجموعاته الإثنية في عيش مستقر والعودة لروح التعايش السلمي التي كانت سائدة في هذه المناطق لقرون عدة. وبعد تجربة جنوب السودان اليوم فإن طرح تقرير المصير من الصعب أن يكون دعوة للانفصال. نعم إن احصاءات تقرير المصير حول

العالم تشير إلى أن معظم الحالات قد تنتهي بالانفصال، كما حدث في جنوب السودان، وذلك نسبة لطغيان الجانب العاطفي المرتبط بالهوية والتجربة التاريخية في العلاقة بين السكان في اللحظات الحاسمة وعدم تحكيم العقل والمنطق في مثل هذا الأمر.[١٨]

بالرغم من أن الذين يطرحون شعار تقرير المصير يريدون به أن يكون كرت ضغط في مفاوضات مقبلة، إلا أن مثل هذا الطرح يمكن اختطافه من قبل المتطرفين في الحركات، خاصة مع وجود الانشقاقات في وسطها. وهنا يأتي دور المثقف والنخب الحادبة على وحدة البلاد ومصلحة إنسانها المهمش بعيداً عن مركز اتخاذ القرار والمشاركة فيه وخلق الرؤية الصائبة وجعل تقرير المصير حقاً لكل مواطن بعد وضع الضوابط التي توضح أن الانفصال ليس هو الحل، وما دون ذلك قد يكون ميسوراً.

خلاصة

هكذا يمكن النظر لهذه المناطق التي نسميها السودان الثالث ويسميها البعض بمناطق التماس ويقطنها المهمشون من السكان على أنه بالإمكان إيجاد الكيفية المثلى لإدارة التنوع الإثني والثقافي والاجتماعي فيها. كما أن مواردها الطبيعية يمكن أن تقود بوفرتها إلى توفير الأمن الغذائي لها ولجيرانها والأقطار في كل إقليم شرق إفريقيا والشرق الأوسط.

وإذا ما أحسنت إدارة التنوع في السودان يمكن أن يكون ذلك نموذجاً يُحتَذى به في دول القرن الإفريقي والشرق الأوسط خاصة، وأن على النخب

(١٨) الشكر للدكتور موسى آدم عبد الجليل لطرح هذه المسألة بخصوص تقرير المصير وإمكانية اختطافه من قبل المتطرفين.

فيها أن تقود إدارة التنوع وتنمية المجتمعات برؤية صائبة.أما إذا فشلت هذه النخب في القيام بدورها ولم تستفد من رأس مالها الاجتماعي في توجيه سير التنمية فيها فإن ذلك سيقود إلى ترسيخ النظرة لها بأنها دولة فاشلة لا تحفظ أمن مواطنيها ولا تقدم لهم الخدمات الأساسية من أمن وغذاء وصحة وتعليم، إضافة إلى أنها تظل طاردة لرأس مالها البشري عبر هجرات شرعية وغير شرعية تزيد مقدراتها ضعفاً على ضعف. إن ما يحدث الآن في ذلك الجزء من السودان قد يقود إلى مزيد من التقسيم، الأمر الذي يجعل تجزئة المجزأ أمراً قريب الاحتمال.

هل السودانيون سياسيون:
العودة إلى ورقة قديمة بالنقد والمراجعة

ياسر عوض

مستخلص: اعتماداً على مراجعات نظرية ودراسة ميدانية، تحاول هذه الورقة الرجوع بالنقد والمراجعة، إلى ورقة سابقة منشورة حول المشاركة السياسية في السودان. استخدمت الورقة الحالية منهج تحليل الموقف والتعريف التنموي لـ"المشاركة السياسية" – خلافاً للتعريف السائد لها والذي استخدمته الورقة السابقة – لمعرفة كيف يشارك السودانيون في السياسة وفقاً للسياقات المجتمعية المختلفة التي هم فيها. أهم ما توصلت إليه الورقة، أن مستوى مشاركة السودانيين في الأنماط الجماعية والمدنية أعلى من مشاركتهم في الأنماط التقليدية الفردية الانتخابية، وأن التحولات التي طالت التشكيلة الاجتماعية في تسعينيات القرن الماضي كان لها أثر كبير في أنماط ومستويات ودوافع الانخراط في السياسة، وأن "رفع حاجز السياسة" بين المركز والأطراف له دور واضح في التحديد المكاني لهذا التأثير.

Abstract: Based on theoretical readings and field research, this paper tries to - critically - revisit a previous published paper on political participation in Sudan. Situational analysis and a developmental definition (rather than the mainstream definition) are applied to figure out how Sudanese people get involved in politics in their respective society-specific contexts. Sudanese people are found, according to this analysis, to be highly involved in civic collective modes of political participation compared to conventional electoral modes. The paper reveals that the changes the Sudan social formation underwent in the 1990s have far-reaching effects on the modes, motivations and levels of political participation. "De-territorization of politics" has been found instrumental in locating these effects.

كلمات مفتاحية: المشاركة السياسية، المشاركة المجتمعية، الفاعلية السياسية، التشكيلة الاجتماعية، تلاشي الحدود السياسية.

مقدمة

في أحد أنشطة قسم العلوم السياسية بجامعة الخرطوم كنت قد قدمت ورقة – نشرت فيما بعد في مجلة الدراسات السودانية – سعت إلى إعطاء مقدمة

نظرية تمهد لمنهجية علمية تضع الاتفاق السائد القائل بأن الشعب السوداني شعب سياسي، موضع الدراسة الأكاديمية النقدية.[1] وهي ورقة في جانب كبير منها، بالإضافة إلى موضوعات أخرى، تتناول المشاركة السياسية في السودان وذلك لأنها – من أجل التقديم النظري - أحالت إلى عدة مفاهيم واستعانت بها وراجعتها، من بينها مفهوم "السياسة"، و"السياسي"، و"الثقافة السياسية" و"المشاركة السياسية". ولما كنت قد أجريت دراسة ميدانية بعد ذلك، مستلهماً ذلك التقديم النظري، عن المشاركة السياسية في السودان، رأيت أنه من الأوفق الرجوع لتلك الورقة، ليس فقط من أجل نقدها ومراجعتها، ولكن أيضاً من أجل الإجابة على بعض الأسئلة التي كان من المستحيل الإجابة عليها دون العمل الميداني. بهذا تكون الورقة الحالية هذه عودة ومراجعة نقدية للورقة الأولى.

تبنت الورقة الأولى، كما تتبنى هذه الورقة، تعريف السياسة القائم على السلطة، وليس فقط على الأشكال النهائية لمحصلتها مثل الدولة، والحكومة، والأحزاب والقوانين، إلخ. فهي تعني:

علاقات القوى المتعددة التي تكون محايثة للمجال الذي تعمل فيه تلك القوى، مكوِّنة لتنظيم تلك العلاقات؛ إنها الحركة التي تحوِّل تلك القوى وتزيد من حدتها وتقلب موازينها بفعل الصراعات والمواجهات التي لا تنقطع، وهي السند الذي تجده تلك القوى عند بعضها البعض بحيث تشكل تسلسلاً ومنظومة، أو على العكس من ذلك، تفاوتاً وتناقضاً يعزل بعضها عن بعض، وهي أخيراً

(١) ياسر عوض (٢٠٠٧): "هل السودانيون سياسيون؟ مقدمة نظرية". مجلة الدراسات السودانية، المجلد (١٣) العدد (٢)، ص ص ١٦٧ – ١٨٨.

الإستراتيجيات التي تفعل فيها تلك القوى فعلها، والتي يتجسد مرماها العام ويتبلور في مؤسسات أجهزة الدولة وأشكال الهيمنة الاجتماعية".[٢]

إن تبني هذا التعريف يعني تبني فكرة شمولية السياسة وتغلغلها في مناحي الحياة المختلفة من أبسطها إلى أعقدها، من الجذور الاجتماعية والاقتصادية والعلاقات التحتية وحتى تمظهر هذه العلاقات في المؤسسات والأجهزة والقوانين. ولهذا فإن تأثر الأفراد والجماعات أو الشعب بأسره بها هو تأثر ضروري أو حتمي، إذ أنها تمس - بشكل من الأشكال – هذا الشعب في كل لحظات يومه (وإن لم يشعر)، وكذا علاقاته واحتياجاته، إلخ.

إن كنا قد توصلنا بذلك التعريف الشمولي إلى أن السياسة تتدخل (أو تؤثر) في كل مناحي حياة السودانيين، فإننا لا نتسرع بالقول بأن السودانيين سياسيون ما لم نثبت بأنهم يقابلون هذا التأثر بفاعلية تقابله.

بالحديث عن فاعلية السودانيين في السياسة نستدعي (بالضرورة) مفهوم "المشاركة السياسية" (Political Participation). ولكن قبل التطرق لهذا المفهوم دعونا نبدأ بمفهوم "السياسي" (Political) الذي سوف نحدد به، أو نصف به المشاركة في كونها سياسية، وذلك كمقدمة للدخول في الجدل والنقاش حول مفهوم المشاركة السياسية من ناحية، وكمقدمة لتوضيح خصوصيتها في واقع السودان من ناحية أخرى.

(٢) ميشيل فوكو (١٩٨٨): جينالوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء، دار توبقال للطباعة والنشر، ص ٧٨.

إن إضفاء صفة سياسي على فعل، فرد، جماعة مؤسسة، إلخ يعني بصورة عامة دخوله في المجال السياسي (Political Scope) من بين المجالات الأخرى أو معها (الاقتصادية، الثقافية، الدينية، إلخ) المكوِّنة للظاهرة الاجتماعية الكلية. هنا لابد من الإشارة - كما أشرنا في الورقة السابقة – إلى موضوع المحددات (Determinants) والذي يعين أي مجال (سياسي، اقتصادي، ديني، إلخ) محدد للآخر، وما هي العلاقة بين هذه المجالات. وفي ذلك نشير إلى مشروع بولانتزاس (Paulantzas) الذي اعتبر المجال الأيدولوجي، والسياسي، والثقافي، والاقتصادي أقاليم (Regions) في بنية المجتمع، وأعطى هذه البنية القدرة على التحول عبر التاريخ، بحيث يكون كل إقليم هو المحدِّد، في ظروف تاريخية معيَّنة، لشروط هذه البنية وبقية الأقاليم.[٣] كما نشير إلى مشروع التوسير (Althusser) المقترح "البنية ذات الهيمنة" و"التضافر"[٤] لرصد العلاقة بين ما يعرف بـ"البنية التحتية" و"البنية الفوقية"، حيث تتضافر عدة شروط (اقتصادية، وسياسية، وايدولوجية، وثقافية) لإنتاج ظاهرة معينة في شروط معينة، وإن كان الشرط الاقتصادي عنده هو الذي يحدد في النهاية التناقض السائد في هذا التضافر.

نتيجة لعمليات وتجليات الحداثة في أوربا في مختلف الأصعدة (الاقتصادية التي أنتجت اقتصاد السوق، والسياسية التي أنتجت فصل السلطات ومفهوم الحكومة المحدودة (limited government)، والفكرية التي أنتجت العلمانية وغيرها) المربوطة أصلاً بالتمايز الواضح داخل التشكيلة الاجتماعية طبقياً

(٣) Nicos Paulantzas (1987): *Political Power and Social Classes*. London: Verso Press, 1987.

(٤) See Louis Althusser (1969): *For Marx*, trans by Ben Brewster. London: Verso press; and Althusser and Balpar (1969): *Reading Capital*. London: Verso Press.

وفكرياً وعلمياً، يمكن التحدث بأمان عن مجال سياسي مفصول (ولو جزئياً) عن غيره من المجالات الدينية، والاجتماعية، والثقافية وغيرها. ولكن في واقع التشكيلة الاجتماعية قبل الرأسمالية للسودان، لا يصح إلا الحديث عن التمايز غير الواضح طبقياً وعملياً، وعن التداخل في الأدوار (الفردية والجماعية والمؤسسية) والمجالات (الاجتماعية، والدينية، والاقتصادية والسياسية)، مما يصعب معه فصل المجال السياسي عن غيره من المجالات الأخرى.

كل ما تم تقديمه من إطار نظري حتى هذا الجزء تتفق فيه هذه الورقة مع الورقة السابقة. ولكن تأتي المراجعة هنا استناداً على انتقادين: نظري يتبعه آخر عملي، كما سيأتي تباعاً.

تغيرات في التشكيلة الاجتماعية السودانية

إن استخدام مفهوم التشكيلة الاجتماعية بالنظر لعلاقات القوى (الاجتماعية والاقتصادية والسياسية) المحدِّدة لفاعلية وقدرة الأفراد والجماعات السودانية على المشاركة السياسية لا يحتم بالضرورة الاكتفاء – كما فعلت الورقة السابقة – بالتقسيم الذي أجراه تيم نبلوك (Tim Niblock) في كتابه المترجم "صراع السلطة والثروة"[٥] وذلك لأن ذلك التقسيم الذي أجراه في ثمانينيات القرن المنصرم (بالرغم من صحته آنذاك) يحتاج إلى تعديل أملته التحولات التي حدثت بعد ذلك. إن تبني التشكيلة الاجتماعية التي أوردها تقسيم نبلوك كأساس لدراسة وقياس المشاركة السياسية في السودان يوصل إلى نتيجة مفادها أن ميزان القوى يرجح لصالح أربع مجموعات هي:

(٥) Tim Niblock (1987): *Class and Power in Sudan: The Dynamics of Sudanese Politics 1898-1985*. London: MacMillan Press, pp. 50-60.

١. القيادات الدينية: المكوَّنة من زعماء الطرق الصوفية وزعامة طائفة الأنصار. نجد هنا صحة تداخل المجالات الدينية والاقتصادية والسياسية في بناء قوة هذه المجموعة التقليدية، ومن ثم ارتفاع درجة فاعليتها السياسية وتأثيرها على السياسة والحكم في السودان منذ فترة الاستعمار وما بعده.

٢. القيادات القبليِّة: ونرى هنا تداخل المجالات القبلية/الإثنية والاقتصادية والسياسية في بناء قوة هذه الصفوة التقليدية.

٣. مجموعة التجار والرأسمالية الناشئة: وهنا يتداخل المجال الاقتصادي مع السياسي في بناء قوة هذه الصفوة، وبالتالي قدرتها على المشاركة السياسية.

٤. كبار الموظفين والمهنيين: وترتبط هذه المجموعة بالخريجين والمتعلمين، وكذلك تشير إلى صفوة حديثة مرتبطة بالخدمة المدنية.

تفوق فاعلية هذه المجموعات الأربع فاعلية الأعداد الكبيرة لمجموعات أخرى (من المجمتع السوداني) المكوَّنة من المزارعين والرعاة والعمال وصغار الموظفين وغير العاملين.

إن الدراس للسياسة السودانية وتاريخها وللحكومات المتعاقبة وأجهزتها التشريعية والتنفيذية، وكذلك الدارس للتنظيمات السياسية والحزبية في السودان، يجد بوضوح التأثير الكبير للمجموعات الأربع الأولى (المشكِّلة لصفوة سودانية تجمع بين الحداثة والتقليدية) على السياسة والحكم في السودان مقارنة بالمجموعات الأخرى.

إن اتخاذ هذه التشكيلة الاجتماعية (التي أوردها نبلوك) أساساً لدراسة المشاركة والقول بأن هذه المجموعات الأربع مشاركة أكثر من غيرها في السياسة السودانية قول فيه الكثير من التعميم المخل وذلك لأن هذه التشكيلة

قد تأثرت بتحولات وتغيرات لم تعد بعدها كما كانت، هذا من جهة. ومن الجهة الأخرى يغفل ذلك التعميم أشكالاً عدة وجوانب أخرى من العملية السياسية غير الأشكال والجوانب الرسمية والحكومية، كما يشير إلى ذلك التعريف الذي أوردناه للسياسة، وكما سيرد في مناقشة تعريف المشاركة السياسية لاحقاً.

من بين التحولات التي حدثت في التشكيلة الاجتماعية السودانية منذ تسعينيات القرن الماضي بروز عدد مقدر من "أغنياء جدد" منتمين لحزب المؤتمر الوطني الحاكم و/أو مستفيدين من سياساته. إن بروز هذه "الطبقة" جاء خصماً على مجموعة التجار التقليديين وكبار الموظفين، وعلى ما عرف بـ"الطبقة الوسطى" عموماً. في ذلك يمكن الرجوع إلى سياسة التحرير الاقتصادي، والخصخصة (أو بيع مؤسسات القطاع العام)، ودخول البترول في الاقتصاد كعوامل اقتصادية لظهور هذه المجموعة. يتضح ذلك إذا تم ربط هذه العوامل بالعوامل السياسية مثل سياسة التمكين والمحاصصات السياسية وظهور "طبقة" اقتصادية من السياسيين.

من التحولات الكبرى أيضاً في التشكيلة الاجتماعية السودانية – مما هو مرتبط بأطروحة هذا الجانب من الورقة – ازدياد حدة التمايز الإقليمي على المستوى الاقتصادي والخدمي التي كانت موجودة أصلاً من جهة، وعدم تمايزه من حيث المكان/الجغرافيا من جهة أخرى، وذلك بمعنى أن الهامش موجود مكانياً/جغرافياً في المركز بكل أبعاده من ضعف في المستوى الاقتصادي والخدمي، حتى اغترابه عن المركز من الناحية النفسية–اجتماعية والثقافية. انظر للأحياء الطرفية لولاية الخرطوم. هذا التحول زاد من فاعلية قوى الهامش/الأقاليم حتى وصلت إلى مرحلة مناهضة المركز وحمل السلاح، ليس

كما كانت تفعل من قبل (من أجل حقوق الأقاليم فقط)، ولكن من أجل تغير المركز والانفصال عنه.

وجود الهامش في المركز، الذي دعمته تحولات في تقنيات الاتصال والانتقال، أدى إلى حالة من عدم ارتباط الفاعلية السياسية بالموقع الجغرافي الثابت أو ما عرف بـ (de-territorization of politics). فالحرب الدائرة جغرافياً في دارفور أو جنوب كردفان مثلاً هي دائرة، وإن كانت بوسائل أخرى، أيضاً في الخرطوم ومدعومة منه ومن مراكز أخرى. ومخطئ من ظن أن أفراد وسلاح القوى المحاربة في تلك الأقاليم ليس لها وجود في الخرطوم.

المشاركة السياسية: التعريف السائد

من الأخطاء التي وقعت فيها الورقة السابقة، والتي لفت الانتباه إليها الاطلاع النظري والعمل الميداني، أنه بالرغم من حديثها عن إطار نظري شامل وديناميكي، إلا أنها ركنت إلى تعريفات للمشاركة السياسية قاصرة أدت بدورها إلى افتراضات قاصرة وغير ديناميكية. من ذلك، اعتمدت الورقة السابقة على التعريفات السائدة (في أدبيات العلوم السياسية وأدبيات المشاركة السياسية) للمشاركة السياسية والتي تنتمي لاتجاه نظري واحد دون النظر لغيرها - الضمير هنا يشير إلى التعريفات والاتجاهات النظرية معاً. التعريف التقليدي السائد يقول بأن المشاركة السياسية هي: "العملية التي من خلالها يلعب الفرد دوراً في الحياة السياسية لمجتمعه وتكون لديه الفرصة لأن يساهم في وضع الأهداف العامة لذلك المجتمع وأفضل الوسائل لتحقيق تلك الأهداف". أو أنها: "تلك الأنشطة الإرادية التي يشارك بمقتضاها أفراد مجتمع ما في اختيار حكامه وفي صياغة السياسة العامة بشكل مباشر أو غير مباشر. أي أنها تعني اشتراك الفرد في مختلف مستويات النظام السياسي".[٦] هذا التعريف يحدِّد

إجرائياً أشكالاً من المشاركة السياسية مثل العضوية في الأحزاب السياسية، والعمل في الحملات الانتخابية، والمنافسة على المناصب العامة والحزبية، وتقلد تلك المناصب، ويصنفها كأشكال أكثر فاعلية للمشاركة. هذا، مقارنة بأشكال صنِّفت كأقل فاعلية مثل التصويت في الانتخابات، والبحث عن معلومات سياسية، والمشاركة في المناقشات السياسية، وحضور الاجتماعات السياسية، والاهتمام العام بالسياسة. هذا التعريف تمت ترجمته إجرائياً إلى مدرج أو سلم (scale) يشير إلى ثلاث مجموعات من الأنشطة:

أ. أنشطة المشاركين سياسياً، أو ما عرفه ملبراث (Milbrath) بأنشطة المتبارين (Gladiators Activities) مثل:

١- تقلد منصب سياسي عام أو حزبي.
٢- السعي نحو تقلد منصب سياسي أو حزبي.
٣- تفعيل المساهمات المالية.
٤- حضور الاجتماعات الاستراتيجية للحزب.
٥- العضوية النشطة في تنظيم سياسي.
٦- المشاركة في الحملات الانتخابية.

ب. نشاطات انتقالية (Transitional Activities) مثل:

١- حضور اجتماع سياسي أو مسيرة.
٢- المساهمة المالية للحزب أو المرشح.
٣- الاتصال بالقيادة السياسية والمنصب العام.

(٦) David Sills (ed.) (1972): *International Encyclopedia of the Social Sciences* Vol.14. New York: The MacMillan Co. and Free Press, p. 252.

ج. نشاطات المتفرجين (Spectators Activities) مثل:

١- ارتداء أو حمل العلامات أو الشعارات الحزبية.

٢- محاولة التأثير على الناخبين.

٣- ابتدار نقاش سياسي.

٤- التصويت في الانتخابات.

٥- الاستجابة للمحرضات السياسية.(٧)

التعريف السائد مطبقاً على السودان

بالرغم من الثراء النظري والاختلاف حول مفهوم المشاركة السياسية الذي سنشير إليه لاحقاً، وبالرغم من خصوصية التشكيلة الاجتماعية السودانية التي أشرنا إليها سابقاً، إلا أن الورقة السابقة قد تبنت التعريف السائد للمشاركة السياسية دون روية. وعندما تم إجراء عمل ميداني ضمن بحث مطوَّل لدراسة وتحليل الأنماط السائدة للمشاركة السياسية في السودان باستخدام التعريف السائد، لم تكن النتائج غير متوقعة إذا ما قورنت بالنتائج التي تم التوصل إليها في بحوث وبلدان أخرى.(٨)

يوضح الجدول التالي أن المشاركة السياسية للمشاركين في الدراسة الميدانية في الأنماط السائدة والتعريف السائد تتدرج (طبقاً للمدرج السائد)

(٧) Lester W. Milbrath (1965): *Political Participation: Why and How Do People Get Involved in Politics?* Chicago: Rand McNally, p. 14.

(٨) Yasir Awad A. Eltahir (2008): Political participation in Sudan: How Sudanese people get involved in politics, Phd. Thesis, University of Khartoum.

من الاهتمام العام بالسياسة صعوداً إلى تقلد المناصب السياسية العامة. بمعنى آخر، أنه كلما صعدنا في المدرج إلى أعلى وإلى مشاركة أكثر فاعلية قلَّ عدد المشاركين.

جـدول رقم (١) يوضح تدرج المشاركة السياسية في السودان

نمرة	نوع المشاركة	النسبة
١	تقلد منصب سياسي أو حزبي	١,٧٪
٢	الترشح لمنصب سياسي أو حزبي	١,٧٪
٣	حضور الاجتماعات الاستراتيجية للحزب	٩,٢٪
٤	تفعيل المساهمات المالية	١٤,٢٪
٥	العضوية النشطة في تنظيم سياسي	٢١,٧٪
٦	المشاركة في الحملات الانتخابية	٢٧,٥٪
٧	حضور اجتماع سياسي	٣٢,٥٪
٨	المساهمة المالية للحزب	٣٢,٥٪
٩	الاتصال بالقيادة السياسية /المنصب السياسي	٣٣,٣٪
١٠	المشاركة في مسيرة	٤٠٪
١١	محاولة التأثير على الناخبين	٤٤,٢٪
١٢	ابتدار نقاش سياسي	٧٥,٨٪
١٣	التصويت في الانتخابات	٨٥,٨٪
١٤	الاهتمام العام بالسياسة	٨٨,٣٪

المصدر: Yasir Awad A. Eltahir (2008): Political participation in Sudan, op.cit.

أفادت الدراسة الميدانية بأن المشاركة السياسية في السودان متدنية، وأن مستوى مشاركة العامة أقل من مشاركة الصفوة. كما أفادت بأن قليلاً من الأفراد يشاركون في الأنشطة الصعبة والمكلفة (مادياً ومن حيث الوقت)، بينما تشارك الأعداد الأكبر في الأنشطة السهلة، غير المكلفة وغير الفاعلة. بتعبير آخر، توصلت الدراسة إلى أن المشاركة السياسية للمواطنين تزيد من حجمها وفاعليتها في الأنماط الأقل فاعلية للمشاركة مثل الاهتمام العام بالسياسة والتصويت في الانتخابات، وتقل في الأنماط الأكثر فاعلية مثل تولي المناصب السياسية. وهذا يتماشى مع نتائج الدراسات السابقة التي أجريت في مناطق عدة من العالم استخدمت نفس التعريف.

بإدخال عوامل مثل النوع، والدخل، والتعليم، والسكن، والدين نجد أيضاً تفاوتاً في مستويات المشاركة السياسية لا يختلف عما هو سائد في الدراسات المشابهة؛ فكلما زاد تعليم الفرد ودخله زادت مشاركته السياسية، وكلما كان الفرد منتمياً إلى فئة غالبة (اجتماعياً، دينياً، عرقياً، إلخ) كلما زادت مشاركته السياسية. بتعبير آخر، أنه كلما زادت المكانة الاجتماعية للفرد (مقاسة بالدخل، والمستوى التعليمي، والمهنة، والنوع، والعمر) ارتفع مستوى مشاركته.

في مناحي أخرى من التدرج والمقارنة توصلت الدراسة الميدانية إلى أن سكان الخرطوم أعلى مشاركة من غيرهم، ومشاركة الرجال أعلى من مشاركة النساء، ومتوسطو الأعمار أعلى مشاركة من كبار وصغار السن، وذوو الدخل الأعلى أعلى من مشاركة ذوي الدخل الأقل.[٩]

(٩) Ibid.

من العوامل التي تم استخدامها في العمل الميداني لدراسة المشاركة السياسية في السودان – كما فعل الاتجاه التقليدي لدراسة المشاركة السياسية في عدة بلدان - عامل الفعالية السياسية "political efficacy" والتي عرفها الموند (Almond) وفيربا (Verba) في كتابهما المشهور "الثقافة المدنية" (civil culture) على أنها "القدرة التنافسية السياسية الذاتية التي بموجبها يشعر الفرد بأنه قادر على التأثير على متخذ القرار ولذلك يشارك سياسياً".(١٠)

تقسم الفعالية السياسية إلى قسمين: فعالية داخلية (internal efficacy)، وهي تقيس نظرة المواطنين لأنفسهم على أنهم قادرين أو غير قادرين على فهم السياسة والتأثير الفعلي عليها، بينما تقيس الفعالية الخارجية "external efficacy" تقييم المواطنين لجدوى مشاركتهم في السياسة، وربط هذه الجدوى بنظرتهم لأجهزة الدولة ومدى استجابتها لمطالبهم وتأثرها بمشاركتهم السياسية.(١١)

لقياس الفاعلية الداخلية تم اعتماد الأسئلة التالية المعروفة في الأدبيات لتحويل التعريف النظري إلى إجرائي:

١/ أمثالي من الناس ليس لديهم رأي حول ما تفعله الحكومة.

٢/ التصويت في الانتخابات هو الوسيلة الوحيدة للناس أمثالي لتوضيح رأيهم فيما تفعله الحكومة.

٣/ السياسة والحكومة موضوعات معقدة وصعبة الفهم بالنسبة لي وللناس أمثالي.

(١٠) See Shaun Bowler and Todd Donovan (2002): "Democracy, institutions, and attitudes about citizen influence on government", *British Journal of Politics* Vol. 32, Cambridge: Cambridge University Press, p. 372.

(١١) Ibid.

أوضحت الدراسة الميدانية الاتجاه العام لقبول المقولة الأولى، حيث قبلها أكثر من ٧٥٪ من المبحوثين، وقبول أكثر من ٦٦٪ من المبحوثين للمقولة الثانية، وقبول ٧٥٪ من المبحوثين للمقولة الثالثة.

إذا نظرنا إلى هذه الاستجابات مجتمعة فسوف نجد أن أكثر من ٧٢٪ من المبحوثين وافق على الثلاث مقولات (متوسط ٧٥,٨٪، و٦٦,٧٪، و٧٥٪)، وذلك مقابل ١٧٪ رفضوا هذه المقولات (متوسط ١٥٪، و٢١،٧٪، و١٦،٧٪). بهذا يمكن القول بأن الفاعلية الداخلية للمبحوثين متدنية، إذ تبلغ ١٧٪ فقط، وهي نسبة متدنية توضح إحساس المبحوثين بالعجز تجاه الفعل السياسي.

لقياس الفاعلية الخارجية باستخدام الأسئلة المعيارية المعروفة وجدنا الاستجابة للمقولة الأولى (اعتقد أن المسئولين لا يهتمون بآراء المواطنين) كانت مرتفعة، حيث قبلها أكثر من ٨٦٪ من المبحوثين بينما رفضها أقل من ٤٪ فقط منهم. ارتفاع نسبة الموافقة كذلك نجدها بالنسبة للمقوله الثانية (الذين يتم انتخابهم للمجالس النيابية سريعاً ما يقطعون صلتهم بناخبيهم)، وذلك لأن أكثر من ٨٩٪ يوافقون عليها بينما يرفضها ٤٪ فقط. يتكرر ارتفاع نسبة الموافقة كذلك على المقولة الثالثة (الأحزاب السياسية مهتمة فقط بأصوات الناخبين وليس بآرائهم)، إذ يقبلها ٨٤,٢٪ من المبحوثين.

بالنظر إلى هذه الاستجابات مجتمعة فإننا سنجد أن ١٠٧ من المبحوثين (أكثر من ٨٦٪) وافق على المقولات الثلاث مجتمعة بينما رفضها فقط ٦ منهم (أقل من ٦٪).[١٢] هذا يوضح تدني الفاعلية الخارجية للمبحوثين وتقديرهم المتدني لقدرة أجهزة الدولة وأنظمتها في استيعاب مشاركتهم السياسية.

(١٢) Yasir Awad, op.cit.

يوضح هذا التدني عدم ثقة المواطنين في النظام السياسي وأجهزة الدولة، كما يوضح تدني اهتماماتهم بالسياسة.

المشاركة السياسية: أكثر من تعريف

باستخدام التعريف السائد المشار إليه سابقاً لقياس المشاركة السياسية في السودان نكون قد ضيقنا واسعاً. وذلك لأن تعريفات السياسة التي أشرنا لاستخدامها من جانب، وتشابك المجال السياسي مع المجالات الأخرى في التشكيلة الاجتماعية السودانية وتحولاتها من جانب آخر يحتم الرجوع إلى تعريف أوسع وأشمل من هذا التعريف للمشاركة السياسية. وكذلك لأن هذا التعريف يقتصر على أشكال المشاركة في السياسة التقليدية (المرتبطة بالتعريف التقليدي) في صورتها الرسمية، ولا يشمل أشكالاً أخرى خارج نطاق السياسة الرسمية، كما ستناقش الورقة هذا لاحقاً.

إن الخلاف حول تعريف المشاركة السياسية قديم قدم الفلسفة إليونانية. ومن أهم الخلافات ما كان حول الغرض من المشاركة السياسية (وبالتالي التعريف بها): هل هي وسيلة لغاية كما قال هوبس (Hobbes)، أم هي غاية في حد ذاتها كما يرى من قبله أرسطو (Aristotle)؟ أسست الإجابتان على هذا السؤال لاتجاهين نظريين في دراسة المشاركة السياسية. الاتجاه الأول أداتي (instrumental) يرى أن المشاركة السياسية ما هي إلا مجرد أداة أو وسيلة من أجل تحقيق مصلحة أو المحافظة على مصلحة (في الغالب فردية). الاتجاه الثاني تنموي (developmental) يرى أنها ليست من أجل تحقيق مصلحة أو المحافظة على مصلحة (بالرغم من أن المصلحة قد تنتج عنها)، بل هي جزء من إدارة الحياة والشأن العام كله، وبمقتضى مشاركته في هذه الإدارة يكون المشارك إنساناً، أي يحقق إنسانيته بها.

في هذا الصدد يمكن الإشارة إلى أن أرسطو يرى أن الإنسان حيوان سياسي أقصى غاياته أن يشارك في الحياة الجماعية المشتركة مع أصدقائه، وتكون المشاركة السياسية غاية طبيعية في حد ذاتها. ويعرِّف المواطن ليس رجوعاً لميلاده، ولكن في كونه "الذي يشارك في إدارة العدل وتقلد المناصب". أما بالنسبة لهوبس فإن الإنسان كائن فرد (private animal) والمشاركة السياسية وسيلة لتحقيق حاجاته الفردية.(١٣)

تمت مراجعة مفهوم المشاركة السياسية بواسطة الباحثين والمهتمين في العصر الحديث استجابة لعدة عوامل، ليس أقلها إلحاحاً الحديث عن الديمقراطية التشاركية والموجة الثالثة للديمقراطية. وبالرغم من الخلاف النظري الفلسفي القديم حول التعريف بين الإطار الأداتي والتنموي الذي أشرنا إليه، فإن هذه المراجعة قد ساد فيها الإطار الأول على الثاني.

تميز سيادة الإطار النظري الأداتي – الذي تمت الاستعانة به في الورقة الأولى المذكورة – بسمات محددة، ويمكن نقده في الجوانب التالية:

١/ تم تعريف المشاركة السياسية فيه تأسيسياً على النمط الغربي اللبرالي للديمقراطية دون غيره من الأنماط.

٢/ تم حصر المشاركة على الطابع الفردي دون الجماعي. وإذا تم رصد الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لدراسة العوامل المفسرة للمشاركة فإن هذه الجوانب تؤخذ في مستواها الفردي مثل الدخل والوظيفة والتعليم، إلخ.

(١٣) See Ernest Barker. *The Politics of Aristotle*. London: Oxford University Press, 1968.

٣/ اقتصر المجال الذي تتم فيه المشاركة على السياسة الرسمية والمتعلقة بالحكومة والمعترف بها من قبل النظام والقوانين، وذلك باستبعاد مجالات السياسة غير الرسمية والمعتبرة غير قانونية مثل التمرد وحمل السلاح في وجه الحكومة.

٤/ جاء حصر التعريف الأداتي لأنشطة المشاركة السياسية فقط في الجوانب الرسمية للسياسة، ليس تبعاً فقط لقصر في تعريف المشاركة السياسية، ولكن أيضا تبعاً لتعريف غير شامل للسياسة يفترض أن الحكومة أو السلطة الرسمية هي الأداة الوحيدة لصنع وتوزيع القيم، والمصالح، والموارد، مع تجاهل أن هناك سلطات غير حكومية وغير رسمية (مثل الجماعة، القبيلة، العشيرة، إلخ) تقوم أيضاً بهذه الأدوار.

تشمل المقاربة التنموية وتعريفها للمشاركة السياسية، الأنشطة الفردية والجماعية، وتغطي الأنشطة التي تتعلق بالسياسة الرسمية وغير الرسمية، الشرعية والتي خارج نطاق النظام السياسي القائم. قدمت المقاربة التنموية عدة تعريفات للمشاركة السياسية، ولغرض هذه الورقة سوف نتبني تعريف سيليغسون (Seligson) وبوث (Booth) الذي يرى أن التأثير على صناعة القرار السياسي أو اختيار من يصنعونه (في إشارة للتعريف الأداتي) ليس إلا جانباً واحداً من جوانب انخراط المواطنين في السياسة. هناك العديد من الأنشطة التي لا تهدف إلى التأثير على الأجهزة الرسمية للسلطة ولكن، وكما يوضح سيليغسون وبوث، تهدف – أحياناً – إلى توفير موارد تلبي حاجات الأفراد أو الأفراد والجماعات. يسمح تعريف سيليغسون (Seligson) وبوث (Booth) بإدراج القرارات التي تصدر من الأجهزة الرسمية وتلك التي تصدر من الأجهزة غير

الرسمية، حيث أنهما يعرِّفان المشاركة السياسية بأنها "السلوك الذي يؤثر أو يحاول أن يؤثر على توزيع السلع العامة (public goods)".[١٤]

لقد أجبرت محدودية التعريف الأداتي دارس المشاركة السياسية على تجاهل المشاركة الجماعية في السياسة غير الرسمية، وتجاهل أن انخفاض مشاركة العامة في مجالات السياسة الرسمية لا يعنى أنهم لا يشاركون؛ في الواقع أنهم يشاركون، ولكن في مجالات وأنماط أخرى. لهذا، يقول سيليغسون وبوث: "لا يمكننا، على أي حال تجاهل المجالات الأخرى – مثل المجالات الاجتماعية والمحلية – حيث تكون مشاركة الجماهير ملموسة في تلك المجالات حيث الموارد أشح من تلك التي في المستوى القومي، بدلاً من البحث فقط عن توزيع السلع العامة والمشاركة، يمكنها أن تصنع تلك السلع أيضاً.[١٥] بعد الاطلاع على هذا التعريف لا يعقل أن يقصر دارس المشاركة السياسية بحثه على الأنشطة الفردية المحصورة في السياسة الرسمية.

التعريف التنموي مطبقاً على السودان

عندما قمنا، في الدراسة الميدانية المذكورة آنفا، باستخدام المدخل التنموي وتعريفه للمشاركة السياسية، توصلنا – خلافاً لما توصلنا إليه عندما استخدمنا المدخل الأداتي السائد وتعريفه – إلى أن مشاركة السودانيين (الصفوة والعامة) عالية في الأنشطة الجماعية غير الرسمية، والمجتمعية. إنهم يشاركون بفاعلية في حل المشكلات المحلية ويساهمون في العمل في أطر

(١٤) Sleigson Mitchel A. and John A. Booth (eds.) *Political Participation in Latin America.* Vol. 1 New York: Holmes and Meir, 1979, p. 9.

(١٥) Ibid, p. 9.

الأسرة الممتدة، والعشيرة، والقبيلة، والحي، إلخ. كما أن كثيراً منهم قد شارك في أنشطة ضد النظام السياسي بانضمامهم للحركات المسلحة (في الجنوب، والشرق، وجنوب كردفان/جبال النوبة، والنيل الأزرق)، وهي أنشطة لم تكن محسوبة من قبل التعريف الأداتي السائد.

تحليل الموقف

يمكن وصف "تحليل الموقف" (situational analysis) بأنه مدخل فيبري (نسبة لماكس فيبر) – بوبري (نسبة لكارل بوبر) – غير وضعي يتناول تفسير وتحليل الأفعال المنجزة بواسطة الفاعلين الاجتماعيين السياسيين في موقف محدَّد أو وفق شروط موقف محدَّد. يلبي هذا المدخل اعتبار خصوصية السلوك الإنساني – مقارنة بالظواهر الطبيعية/ الفيزيائية – المتمثلة في القصدية والعقلانية وارتباطها بالمعنى، كما يلبي من ناحية أخرى اعتبار شروط العلمية.

يمكن تقسيم "تحليل الموقف" – لجعله قابلاً للتطبيق الإجرائي – إلى: (١) نموذج تحليل الموقف، و(٢) مبدأ العقلانية. النموذج بدوره ينقسم إلى محددين ويضع اعتبار لهما: (١) المشكلة – الموقف: وهي القضية المرتبطة بالموقف التي يجد فيها الفاعل نفسه ويعرف مشكلته، ويتفاعل معها، ويقوم بأداء الفعل من أجل حلها. و(٢) البيئة الاجتماعية: والتي تمثل القاعدة التي تحدد المشكلة – الموقف، والفاعلين، والأفعال.[١٦] بذلك يكون هناك ارتباط بين المشكلة، والموقف، والبيئة، والمفاهيم والمعاني حول تلك الأبعاد، والذي

(١٦) James Farr (1985): "Situational analysis: Explanation in political science". *The Journal of Politics* Vol. 47, Number 4, pp.1085 – 1107.

في النهاية يفسر الفعل. بهذا يكون التصور والمعنى الذي يضفيه الفاعل على الفعل والموقف من الأهمية بمكان.

باتباع هذا المدخل بكل أبعاده التي ذكرت يتوفر لدارس المشاركة السياسية البدء بدراسة المعنى الذي يضفيه الفاعلون للسياسة ويحملونه عندما يقدمون على المشاركة فيها، وليس إسقاط تعريف أنتج في بيئة أخرى على أفعالهم. وقبل ذلك يتوفر له دراسة البيئة والسياق والقاعدة (بمكوناتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية) التي تشكل الموقف والمعنى والفعل. باتباع ذلك يكون الدارس للمشاركة السياسية قد حقق شرط الواقعية، شروط النسبية المرتبطة بالموقف ومبدأ العقلانية الإنسانية (الشرط/المكوِّن الثاني من التحليل الموقفي).

عندما تم الاستقصاء عن المفهوم أو المعني الذي يضفيه المواطنون (الذين تمت مناقشتهم أثناء الدراسة المبدانية) للسياسة تعددت التعريفات وتباينت، إلا أن الاتجاه العام ينظر إليها كفعل أو نشاط يقوم به عدد من الفاعلين: المواطنون، والأحزاب، والحكومة، والمتعلمون دون غيرهم، والسياسيون، إلخ من أجل تحقيق عدد من الغايات؛ وقد أخذت الحاجات الأساسية مكان الصدارة في الغايات التي ذكرها المشاركون في الدراسة الميدانية.[١٧]

عندما تم الاستقصاء عن مفهوم المشاركة السياسية الذي يحمله المواطنون وجدنا في الدراسة الميدانية أن الاتجاه العام لتعريف المشاركة السياسية بواسطة أغلب أفراد المجتمعات التي تمت دراستها بولايتي جنوب كردفان وأعالي النيل – وخلافا للتعريف الأداتي السائد – ينظر إليها كأنشطة

(١٧) Yasir Awad, op.cit.

غير رسمية تقع خارج النطاق الحكومي وذات طابع جماعي، وتهدف إلى تحقيق غايات وأهداف ومصالح جماعية.[١٨] يعزى ذلك إلى توفر مؤسسات وأنماط العمل الجماعي في تلك المجتمعات المذكورة تبعاً لثقافة وإرث العمل الجماعي أو العمل الفردي من أجل الجماعة مثل النفير والفزع والعمل من أجل حل المشكلات على نطاق الأسرة الممتدة، والحي، والعشيرة، والقبيلة. يرى روبرت بوتنام (Robert Putnam) أن هناك علاقة طردية بين ما أسماه "الالتزام المدني" (civic engagement) بالعمل الجماعي من جهة ومعدل المشاركة السياسية من جهة أخري. في كتابيه (Bowling Alone) و(Making Democracy Works) يري بوتنام أن المجتمعات الموسومة بمستوى عال من "الالتزام المدني" المرتبط بقدر عال من "رأس المال الاجتماعي" تكون فيها المشاركة السياسية بمعدلات مرتفعة.[١٩]

الذين تمت مناقشتهم، في المجتمعات المدروسة في العمل الميداني، حول مفهوم المشاركة السياسية لديهم اعتقادهم الخاص – المرتبط بمجتمعهم ومتطلباته – أنهم يعتمدون على المؤسسات المجتمعية في توجيه سلوكهم وأفعالهم بناءً على تقويم، ومنطق، ومعلومات المجتمع، وطرائق تفكيره.

تبعاً لذلك اختلفت أنماط المشاركة السياسية وغاياتها من مجتمع إلى آخر، ومن منطقة إلى أخرى، ومن سياق إلى آخر. ففي ولاية جنوب كردفان (بعد اتفاقية السلام الشامل حين إجراء العمل الميداني) كانت قضايا التنمية وإعادة

(١٨) Ibid.

(١٩) Robert D. Putnam (2000): *Bowling Alone: The Collapse and Revival of American Community*. New York: Simon and Schuster, p. 19 and (1993): *Making Democracy Work: Civic Traditions in Modern Italy*. Princeton, NJ: Princeton University Press, pp. 89-91.

الإعمار، والاستيطان هي المحركات الأساسية لأنشطة المشاركة الجماعية. وساد في ولاية أعالي النيل نمط الحركة الاجتماعية الذي أخذ شكل مقاومة النظام السائد في الشمال بالانضمام لحملة السلاح، بالإضافة إلى البحث عن تقرير المصير. هذا، بينما ساد في ولاية الخرطوم – بجانب النمط الرسمي الانتخابي الفردي – حراك لمنظمات المجتمع المدني (بدلاً عن حراك الأحزاب السياسية والنقابات، الذي انحسر خلال حكومة الإنقاذ الوطني) للدفاع عن أو السعي نحو مطالب تتعلق بحقوق الإنسان والمرأة والطفل وغيرها من القضايا. هنا يمكن ملاحظة التحول الكبير لأعداد كبيرة من الناشطين السياسيين من العمل من داخل الأطر والمؤسسات الحزبية والنقابية إلى العمل ضمن منظمات المجتمع المدني،[٢٠] وهو تحول أملته عدة ظروف مرتبطة بالعديد من السياقات الداخلية (مثل التضييق على الأحزاب السياسية) والخارجية (المتمثلة في المساندة الدولية).

خاتمة

في واقع التشكيلة الاجتماعية قبل الرأسمالية للسودان (خلافاً للتشكيلات الاجتماعية الرأسمالية) لا يمكن الحديث عن مجال سياسي مفصول عن غيره من المجالات الدينية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، وبالتالي لا يصح إلا الحديث عن التداخل في الأدوار (الفردية، والجماعية، والمؤسسية) والمجالات (الاجتماعية، والدينية، والاقتصادية، والسياسية). لهذا لا يمكن الحديث فقط عن المشاركة السياسية في السودان وفقاً للتعريف السائد الذي يربطها بالمجال

(٢٠) Yasir Awad, op.cit.

السياسي الرسمي المرتبط بانتخاب متخذي القرار في المؤسسات الحكومية، ولكن يجب أيضاً البحث في أنماط للمشاركة السياسية خارج هذا التعريف.

إن الدارس للتشكيلة الاجتماعية للسودان لابد أن ينتبه للتغيرات التي حدثت لجميع مكوناتها (الاقتصادية والاجتماعية والسياسية) تبعاً للتغيرات التي حدثت منذ تسعينيات القرن الماضي. من مظاهر هذه التغيرات في الجوانب التي تخص أطروحة هذه الورق: بروز "أغنياء جدد" مرتبطين بالنظام السياسي الحاكم خصماً على ما عرف بـ"الطبقة الوسطى" و"الرأسمالية الوطنية"، وازدياد حدة التمايز التنموي الإقليمي وما تبعه من تنامي في فاعلية قوى ما عرف بـ"الهامش"، وتعاظم دور منظمات المجتمع في المدن والأرياف مقارنة بالأدوار التقليدية للأحزاب السياسية.

إن الدارس للمشاركة السياسية في السودان لابد – تبعاً لما توصلت إليه هذه الورقة من مراجعات نظرية ونتائج من واقع الدراسة الميدانية – أن يوظف تعريفات ديناميكية للسياسة والمشاركة السياسية (خلافاً للتعريفات السائدة) تؤهله لدراسة واقع معقد في حراك دائم.

لمحات من تاريخ الحُكم والإدارة في السلطنة السنارية

حسن حامد مشيكة

مستخلص: استند الحكم في السلطنة السنارية عند تأسيسها، على الشريعة الإسلامية والتقاليد والطقوس الموروثة، واختار مؤسسا الدولة النظام الملكي الوراثي أسلوباً لممارسة الحكم والإدارة. غير أن النظام الإداري الذي أُتبع في السلطنة في أطول فترات الحكم هو النظام اللامركزي، وهو الذي يناسب طبيعة النظام القبلي العشائري الذي ينزع إلى الحرية، ويناسب طبيعة التحالف بين الفونج والعبداللاب. تخللت فترة حكم الفونج أيضاً إقامة نظام يمكن أن يطلق عليه "كونفدرالي" (بلغة العصر)، وكان ذلك عندما تمددت السلطنة السنارية في القرن الثالث من عمرها وأقامت علاقات مع مشيخات وممالك مجاورة في كردفان ودارفور.

Abstract: At its establishment, the Sultanate of Sennar adopted Islamic sharia, alongside with customary traditions and rites. Its two founders opted for royal hereditary system of government. But the administrative system that was followed during the longest period of its rule was "decentralization", which provides a degree of freedom and, thus, suits the tribal structure of the sultanate and the nature of the alliance between the Funj and the Abdallab. Later on a system of "confederation" (in today's language) emerged; that was when the Sultanate expanded in the third century of its age and established relations with neighbouring shaikhdoms and kingdoms in Kordofan and Darfur.

كلمات مفتاحية: السلطنة السنارية، الحكم، الإدارة، اللامركزية، الكونفدرالية

مقدمة

قبل قيام دولة الفونج (أو سلطنة سنار) كان سكان السودان الشرقي يدينون بالمسيحية والوثنية، أو بخليط بين هذا وذاك. وعندما انتصر الفونج وحلفاؤهم العرب على آخر معاقل المسيحية في السودان (دولة علوة) نشأت في السودان أول سلطنة إسلامية عربية سيطرت على رقعة كبيرة من وادي النيل، واتخذت من سنار عاصمة لها. كما أصبح سلطانها الأول عمارة دنقس من الفونج، وتبوأ

عبد الله جماع من عرب القواسمة منصب الوزير (أي الرجل الثاني) في الدولة الجديدة. واتفق الاثنان على أن يكون السلاطين من الفونج والوزراء من العرب، وذلك في سنة ١٥٠٤م. [١]

اتخذت مملكة سنار أشكالاً متعددة فى مضامينها وأنماطها السياسية والاجتماعية، فلقد لعبت هذه المملكة أدوراً متعددة ومهمة، وذلك بدلالة تعدد أسمائها، حيث كانت تسمى بـ"السلطنة الزرقاء"، و"السلطنة السنارية"، و"مملكة سنار"، و"مملكة الفونج". كما أنها صارت تمثل معلماً بارزاً وفضاءً واسعاً للمد الإسلامي، وإن اختلف المؤرخون حول هذا الأمر. وقد عنيت مملكة سنار بالعلم واحتفت بالعلماء، وكرمت رجال الدين واستعانت بهم.[٢] وتعد السلطنة السنارية أول دولة إسلامية أقيمت فى السودان وصار لها فيما بعد دلالة وعمق تاريخي إسلامي ضارب الجذور.

يرجح عدد من الكتاب والباحثين أن نمط الحكم الذي اتخذه قادة مملكة سنار خلال ثلاثة قرون ونيف هو النظام اللامركزي، وإن كان هذا النمط من الحكم طبق تلقائياً وليس من بين خيارات أخرى كالنظام المركزي. وجاء اختيار هذا النمط من الحكم – كما يقولون- ليناسب طبيعة هذه الدوله المترامية

(١) ضرار صالح ضرار (٢٠١١): سلطنة الفونج: مدخل إلى تاريخ السودان الحديث. في الرابط الإلكتروني التالي:
www.alfahl.net/Default.aspx?tabid=83&mid=470...439... (13 June 2017)

(٢) للمزيد من المعلومات حول الأمر أنظر: محمد النور ضيف الله (٢٠١٤): كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، تحقيق يوسف فضل حسن، الطبعة الخامسة، الخرطوم، سوداتيك.

الأطراف والمتعددة المشيخات والممالك، والمتابينة في عادات أهلها الذين يتسمون أيضاً بالتنوع الثقافي. ونضيف بأن من دوافع الأخذ بهذا النوع من الحكم، طبيعة الدولة وتركيبتها الإثنية، ووعورة الطرق التي تصل السلطنة الناشئة بالمشيخات العديدة المكوِّنه لها.

تتناول هذه المقالة لمحات من تاريخ الحكم والإدارة في مملكة سنار التي امتد حكمها لفترة طويلة، لذ فإن الإحاطة الشاملة المتعمقة بالتغيرات والتحولات التي طرأت على نظام الحكم والإدارة في بعض فترات حكمها أمر في غاية الصعوبة، إن لم يكن من المستحيل، ذلك لعدم توفر الأدبيات والمصادر الموثقة التي يمكن الاعتماد عليها والاستفادة منها في الدراسة والتحليل العلمي، وفي معرفة مواطن القوة والضعف بشكل جلي في نظام الحكم الذي اتبعته الدوله السنارية والمشكلات الإدارية التي واجهتها على كافة مستويات الحكم، سواء في مناطق سيطرة الفونج في الجزء الجنوبي منها أو مناطق نفوذ العبدالاب في الجزء الشمالي. وبالتالي فإن هذه الورقة لا ترمي لإجراء بحث شامل لما جرى من أحداث مرتبطة بنظام الحكم في سلطنة سنار خلال عمرها الطويل المديد، بل حاولت في الواقع أن تقرأ أوضاع الحكم الذي قام على نظام الوراثة وفلسفة الإدارة التي اتبعت وما يتصل بهما، بمنظار جديد- أي من زوايا مختلفة قليلاً- وتقديم إضاءات طفيفه ولمحات لاستيضاح ما جرى في دهاليز الحكم في تلك السلطنة التي تعاقب على حكمها خمسة وعشرون ملكاً. إذ تستخدم هذه الورقة المنهج التاريخي بجانب المنهج الوصفي حسب مقتضى الحال.

أصل الفونج

من الصعب التعرُّف على الأصل الجينالوجي والنسب الخاص بالفونج، فهذا الأمر "أصل الفونج" شغل الباحثين منذ فترات طويلة، وطرح العديد من

النظريات دون الوصول إلى رأي قاطع. فقد اختلف الرواة والمؤرخون حول أصل الفونج الذين أسسوا دولة سنار بالتعاون والتحالف مع العبدالاب (عرب القواسمة).[٣] إذ تقول بعض المصادر أن الفونج أصلهم أحباش نزلوا من جبال البرونز، إلا أن هذه الرواية يصعب التحقق من صحتها. ولكن هنالك ثلاث نظريات تتناول أصل الفونج يمكن تحديدها كما يلي:

النظرية الأولى: الانتماء إلى الأصل الأموي

لا بد من الإشارة إلى أن ظاهرة الانتساب إلى الأمويين ظاهرة ظلت شائعة لدى الأسر الحاكمة في إقليم السودان الكبير (الممتد من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي) في فترة العصور الوسطى. وقد وجد ذلك لدى ملوك كانم الأوائل كما هو الحال بالنسبة لغيرهم. وجاءت أقدم إشارة خطية إلى صلة الفونج بالأمويين في وثيقة تعود إلى أوائل القرن السابع عشر، من السلطان محمد بادي عجيب يقول فيها أنه أَموي.[٤] وقد ارتبطت مزاعم الأصل الأموي عادة بالحبشة (أثيوبيا حالياً)، لأن الصلات بينها وبين شبه الجزيرة العربية كانت قوية منذ

(٣) يقول مرجب ماهل، أستاذ الإدارة العامة بجامعة الخرطوم "اسم العبدالاب جرى على عادة النسابة والمؤرخين السودانيين في نسبة القبائل إلى مؤسسها. ولم يحالف التوفيق الذين أطلقوا هذا الاسم على الجزء من عرب القواسمه المنسوبين إلى عبد الله جماع (عبد الله) اسم المؤسس، وهو قد اقترن باسم الجلالة فصار عبد اللاب (واللاب) اسم نسبة لاسم الله وهو لا يجوز شرعاً ولاعقيدة. فقد سار هؤلاء النسابة على نسق الميرفاب والرباطاب والعزوزاب والنوراب، ولكنهم أخطأوا عندما حرفوا اسم الجلالة (اللاب) وكان بإمكانهم تسمية القبيلة بالعبادلة".

(٤) محمد النور ضيف الله، مصدر سابق، ص٥٧- ٥٨.

جاهلية العرب.[٥] إذ تقول الروايات المنتشرة اليوم وسط سلالة الفونج بأن أصلهم يعود إلى بعض من بني مروان الذين هربوا من العباسيين عام ٧٥٠م بعد انتهاء الدولة الأموية.[٦] ويضيف هؤلاء بأنهم "ينتسبون لآل البيت عن طريق رجل أموي جاء إلى السودان عبر أثيوبيا وتزوج بنت ملك سوداني، مؤسساً بذلك سلالة انحدر منها عمارة دنقس وسلالته بعدها بحوالي ثمانمائة عام".[٧]

النظرية الثانية: الانتماء للأصل البرناوي

صاحب هذه النظرية هو الباحث آركل، ويقول بأن أصل الفونج يرجع إلى قبيلة البرنو. ويدلل آركل على ذلك بالقول إن البرنو والفونج يدينون بالمذهب المالكي وأن اسم عماره ومشتقاته يكثر ذكره في قوائم ملوك البرنو. ويضيف آركل إن هناك دليل على أن الإسلام قد دخل دارفور من جهة الغرب، وأقرب مصدر له هو برنو، التي كان المذهب المالكي هو المتبع فيها، وكان هذا قبل قيام مملكة سنار. قدم آركل لدعم حجته قرابة العشرين من الشواهد (إضافة

(٥) الواقع أن الأمويين بعد تشتتهم إثر استيلاء العباسيين على دولتهم، قد تفرقوا في البلدان هرباً من بطش عبدالله السفاح وقواده الشرسين. لما قتل الخليفة مروان بن محمد بن مروان كان عنده ابناه عبد الله وعبيد الله وهما وليا عهده، فهربا مع بعض الحاشية وساروا إلى أسوان في صعيد مصر ودخلوا أرض النوبة حيث واجهوا الكثير من المعاناة في شتاتهم ذلك. ويذكر بلوس Bloss أنه عثر على مقابر أؤلئك الأمويين على طول الطريق الذي سلكوه من حاضرة النوبة (دنقلا) إلى سواكن من أرض البجا حيث كانوا يقصدون (باضع) من ساحل البحر الأحمر أنظر:
Bloss. J.F.E, The story of Suakin, *S.N.R*, XIX Part II, 1936, P, 279

(٦) يوسف فضل حسن (٢٠٠٣): مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، الخرطوم، دار مصحف إفريقيا، ص ٦٦.

(٧) أ. ج. آركل (٢٠٠٣): أصل الفونج، ترجمة عثمان أحمد عبد الرحيم، الخرطوم، دار عزة للنشر والتوزيع، ص٣٧.

إلى تلك التي أوردها في مقاله الأول).[٨] انتقد هولت الأصل البرناوي للفونج الذي قال به آركل، إذ يقول إن المصادر الخطية والمترجمة التي اعتمد عليها آركل لا تؤيده فيما ذهب إليه كثيراً.[٩]

وأيضاً يلاحظ أن بعضاً من الباحثين يرجعون أصل البرنو إلى قبيلة حمير المعروفة في اليمن.[١٠] ويمكن القول إن هذه النظرية تقوم على التخمين، بل هي تمثل أضعف النظريات الواردة حول أصل الفونج.[١١] ولكنها في كل الأحوال تبقى إحدى الفرضيات التي لا يمكن تجاهلها.

النظرية الثالثة: الأصل الشلكاوي

قال بذلك الرحالة الأسكتلندي جيمس بروس، وقد زار البلاط السناري عام ١٧٧٢م، ومصدر معلوماته يرجع إلى الروايات الشفهية التي نسبها إلى محدثه "أحمد سيد القوم" من كبار موظفي البلاط السناري.[١٢] إذ يقول بروس

(٨) للمزيد حول هذا الأمر أنظر:

A.J. Arkell (1946): "More about Fung Origins", *Sudan Notes and Records*, Vol. XXVII, p, 97.

(٩) ب. م. هولت (١٩٦٣): "أصل الفونج: نقد وأدلة جديدة"، تاريخ أفريقيا، مجلد ١، ص ٤١.

(١٠) لمعرفة الأصل العروبي للبرنو أنظر الرابط الالكتروني أدناه:
http://afraf.oxfordjournals.org/cgi/pdf_extract/XXVIII/CIX/36

(١١) أنظر كذلك: Mac Michael. H.A. (1912): *A History of the Arab in the Suda*n, v.1, p. 54.

ماكمايكل هو بريطاني الجنسية متخصص في الأنساب وكتاباته من أهم المراجع لأنساب العرب في السودان.

(١٢) أحمد بن الحاج أبو علي (كاتب الشونه) (٢٠٠٩): تاريخ السلطنة السنارية والإداره المصرية، تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل، الدار السودانية للكتب، ص٤٦.

عن أصل الفونج إن قبيلة سوداء من رعاة الماشية كانت تسكن الجانب الغربي من النيل الأبيض قامت بهجوم على المناطق العربية بعدد ضخم من الزوارق، وألحقت الهزيمة بإحدى قبائلها في موقعة بالقرب من "أربجي" وأرغموا زعيمها (ود عجيب) على دفع ضريبة من الماشية، وبإخضاع القبائل العربية الأخرى وإرغامها على دفع الضريبة على الماشية لتلك القبيلة. وقد اعتقد بروس أن هذه القبيلة هي قبيلة الشلك التي وجدت على الضفة الغربية للنيل الأبيض في خط عرض ١٥ درجة شمالاً. ويضيف الرحالة بروس "إن الفونج جاءوا من منطقة الشلك التي تسمى شنقالا وملك الفونج من شنقالا".[١٣]

يقول البعض إن الفونج نهضة نوبية متأخرة من نهضات النوبة الذين حكموا المغرة وعلوة.[١٤] ومهما يكن من أمر، فإن إثبات أصل الفونج أمر شائك ومعقد للغاية نسبة لقلة الأخبار المعتمدة، كما أشار برفيسور يوسف فضل في مؤلفه عن تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي في معرض تناوله للروايات وما تناوله الباحثون ومساهمات وحدة أبحاث السودان بجامعة الخرطوم بشأن (أصل الفونج).[١٥] ولذلك من الصعب إبداء رأي قاطع حول من هم الفونج، غير أن الرأي الذي يرجع أصلهم بأنهم من الحبشة (وبالتحديد من جبال البرونز) رغم صعوبة التحقق من ذلك، جدير بأن يؤخذ في الاعتبار.

(١٣) محجوب عمر باشري (٢٠٠٠): معالم تاريخ السودان، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ص ٤٠.

(١٤) جاي سبولدنق، عصر البطولة في سنار، ترجمة أحمد المعتصم، الخرطوم، ٢٠٠٧.

(١٥) حول أصل الفونج وتأسيس دولتهم أنظر كذلك: مكي شبيكة (١٩٦٤): مملكة الفونج الإسلامية، محاضرات ألقيت على طلبة قسم الدراسات التاريخية والجغرافية، معهد الدراسات العربية، ص ٣٥-٤٧.

أسباب نشأة سلطنة سنار

أشار المؤرخون إلى هجرات كثيفة من حضرموت إلى بلاد البليميين (البجا) وهجرات من عرب ربيعة الذين كانوا ينقبون عن المعادن في منطقة البجا. وقد سيطر الحضارمة على التجارة وسماهم البجا بالحدرابة تحريفاً لنسبهم. أما هجرات ربيعة فقد كانت عن طريق ينبع وكذلك جهينة.

كانت الصلات بين العرب والسودان قبل الإسلام أغلبها عن طريق العبور من سواحل اليمن إلى الحبشة أولاً ثم إلى السودان، إما سلمية من أجل الاستقرار والتجارة أو بغرض الغزو. وبالطبع فقد سهَّل مضيق باب المندب العبور بين الساحل الشرقي والغربي للبحر الأحمر. بعد ذلك تكاثر العرب الذين وفدوا إلى السودان عن طريق الهجرات البطيئة والعفوية، وقد تحقق منها نشر الإسلام، كما استقر المهاجرون في أنحاء مختلفة من السودان (خاصة في أواسط البلاد) نسبة لتوفر الماء والكلأ لهم ولأنعامهم، وبعضهم استفاد من التجارة وأثرى من ذلك.[١٦]

وكانت الهجرات العربية على مر السنين تأتي إلى السودان في شكل دفعات، ولقد وقع صدام وحروبات بين العرب وسكان السودان الأصليين في الممالك المسيحية التي استعصت على المسلمين إلى أن قضى عليها حلف عمارة دنقس وعبد الله جماع، كما سنرى ذلك لاحقاً. وقد سعى طلائع المتصوفة الذين قدموا إلى السودان إلى نشر وتعميق مبادىء العقيدة الإسلامية بطريقة مبسطة أساسها إلزام المريدين اتباع منهج خلقي وتعبدي خاص مع المداومة على قراءة أذكار وأوراد معلومة".[١٧] وبذا وضعت اللبنة الأساسية للوجود

(١٦) مكي شبيكة، مرجع سابق.

(١٧) محمد النور ضيف الله، مصدر سابق، ص ٩.

الإسلامي بالسودان، وارتقى الإسلام بغرس التسامح ونشر مبادئه السمحة، كالعدل والمساواة والتمسك بالحرية والبعد عن التطرف والإكراه. وكان من ثمار هذا التداخل والتلاقح الإثني والثقافي (العربي- الإفريقي) تكوين تحالف بين العرب المهاجرين بقيادة زعيمهم عبدالله جماع وبين الفونج بزعامة عمارة دنقس كما ذكر من قبل. واستطاعت القوتان أن تشكِّلا أول مملكة إسلامية في السودان في عام ١٥٠٤م تحت اسم السلطنة السنارية (أو مملكة الفونج).[١٨] وهي أول دولة عربية إسلامية قامت في السودان بعد دخول وانتشار الإسلام واللغة العربية نتيجة لتزايد الوجود العربي والتصاهر بين العرب والعنج. يجدر بالذكر أن الأنج أو (العنج) من القبائل التي سكنت منطقة سنار والجزيرة قبل الفونج.[١٩] صارت سنار بعد قيامها عنواناً بارزاً ومركزاً مهماً للإشعاع الثقافي والإسلامي في أفريقيا قاطبة، وكان أهل السودان في عهد مملكة سنَّار يعرفون بالسنَّارية وربما وصفوا بالسنانير.[٢٠]

الحلف بين الفونج والعبدالله

كان الدافع الاختياري لاتحاد مملكات ومشايخ السودان الشرقي حاجتها لحماية طرق القوافل التجارية وتطوير التجارة الداخلية والدفاع عن نفسها ضد الغارات المحلية والغزو الخارجي.[٢١] هنالك عدة عوامل أدت إلى قيام الحلف

(١٨) www.nadus.de/index.php/.../sudan.../117-2015-06-28-20-32-21.ht...(20 June 2017).

(١٩) يرى دي فيلر (De Villard) أن الأنج (العنج) اسم القدماء أي السابقين على الفونج، ولذا فإن الروايات المحلية تنسب إلى الأنج معظم الآثار المنتشرة في السودان. (De Villard, p.149). ويرى مكمايكل أن المركز الرئيس للعنج كان في جبل حراز في شمال كردفان (Mac Michael H.R. p.133)

(٢٠) www.aljazeera.net/.../...سنار-عاصمة-مملكة-الفونج-تفتح-ذراعيها-للث

(٢١) محمد عمر بشير (١٩٨٧): تاريخ الحركة الوطنية في السودان، دار جامعة الخرطوم للنشر، ص ١٤.

بين الفونج والعبداللاب الذي أفضى إلى تأسيس مملكة الفونج، ولقد شكَّل ذلك التحالف اتساعاً وشمولاً جديداً في مسار وحدة سودان وادي النيل. وامتدت مملكة الفونج الإسلامية بدءاً لتشمل كل الأراضي فيما بين النيل الأزرق والنيل الأبيض، ونهر عطبرة حتى أطراف الحبشه شرقاً.[٢٢] ثم توسعت رويداً رويداً فيما بعد بمرور الوقت. وبذا وبعد انهيار مملكتي علوة والمقرة توحَّد لأول مرة سودان وادي النيل (ما عدا الجنوب ودارفور) في دولة واحدة، أي بمعنى آخر أن الدولة السودانية التي تشكَّلت في مملكة الفونج، كانت تمثل الرقعة الجغرافية لمملكتي المقرة وعلوة بأكملها إلا القليل منها.[٢٣]

أفضى ذلك التحالف بين الفونج والعبداللاب إلى نتائج مهمة للغاية، من أبرزها قضاء الحليفين على مملكة علوة المسيحية عام ١٥٠٤م كما سبق القول.[٢٤] وقد نتج عن ذلك التحالف قيام مملكة العبداللاب التي اتّخذت مدينة قرّي حاضرة لها، ثم انتقلت لاحقاً عاصمة العبداللاب من قرّي إلى الحلفاية. وقد سيطر العبداللاب على رقعة واسعة من مملكة الفونج يقطنها البجة والنوبة والنوبة المستعربون من سكان وادي النيل بجانب

(٢٢) سلطنة الفونج الإسلامية، منارة الإسلام، أبريل، ٢٠١٥. في المصدر الإلكتروني التالي: islambeacon.com (23 June 2017).

(٢٣) تاج السر عثمان (٢٠١١): تحالف الفونج والعبداللاب، الخصائص والدوافع، دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات، الخرطوم، الدار السودانية للكتب، ص ٥.

(٢٤) دخلت المسيحية إلى علوة من الإسكندرية، وليس من إثيوبيا، وكانت سوبا العاصمة بها مبانٍ عظيمة وكنائس مليئة بالذهب وحدائق. على العموم كانت علوة أكثر ثراءً من دنقلا، وجنودها الأكثر مقارنة بدنقلا.

للمزيد من المعلومات حول هذا الشأن أنظر: أ.ج. آركل (٢٠٠٣): مرجع سابق، ص ٣٧.

السكان البدو من العرب، فهذه المنطقة هي مهد حضارات عريقة.[٢٥]

يتضح من هذا أن العبداللاب شاركوا السلطنة السنارية فى السيطرة على القسم الشمالي من البلاد، وامتدّ ملكهم ليشمل مناطق واسعة كما رأينا. بينما كان الفونج يسيطرون على "الجزء الواقع جنوب أربجي حتى جبال فازوغلي في الجنوب. ومن الشرق تتاخم بلادهم الحدود الحبشية. وأخذت حدودهم نحو الغرب تتسع تدريجياً حتى بلغت كردفان في أواسط القرن الثامن عشر".[٢٦] فهذا الحلف الفونجاوي- العبداللابي تأسس على علاقة متينة منذ مبتدأها أثمرت عن قيام أول مملكة إسلامية في السودان، كان نتاجها جمهورية السودان الحالية، رغم أن مرحلة ما بعد انتهاء الحلف في ١٨٢١ شهدت غزواً أجنبياً واحتلالاً للسودان مرتين مرة في العهد التركي –المصري الذي قضى على هذا الحلف في عام ١٨٢١م بعدما أصبحت سنار مسرحاً لصراعات لا تنتهي- واستمرت لمدة تزيد قليلاً عن ستة عقود من الزمان.[٢٧] ومرة أخرى عندما غزا المستعمر الإنجليزي السودان وهزم أنصار المهدي في موقعة كرري الشهيرة، ثم معركة أم دبيكرات التي قتل فيها الخليفة عبد الله التعايش بالقرب من موقع مدينة كوستي، وانتهت بذلك الدولة المهدية الوطنية في ١٨٩٨.[٢٨]

(٢٥) يوسف فضل حسن (٢٠٠٣): مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٢٦) نفس المرجع، ص ٧٢.

(٢٧) محمد سعيد القدال (٢٠٠٠): تاريخ السودان الحديث (١٨٢٠-١٩٥٥)، الطبعة الثانية، مركز عبد الكريم ميرغني، أم درمان، ص ٣٠.

(٢٨) نفس المرجع، ص ٣١٨.

الحكم والإدارة في مملكة سنار

امتدت مملكة سنار من الشلال الثالث على النيل شمالاً إلى أقصى جبال فازوغلي جنوباً، ومن سواكن على البحر الأحمر شرقاً إلى النيل الأبيض غرباً. وكان الحد الفاصل بين سلطنة سنار ومشيخة قري (وعاصمتها الحلفايا) مدينة أربجي بالقرب من قرية المسلمية.[٢٩] وجاورتها من الغرب مملكة المسبعات في كردفان. استند الحكم فى سنار على الشريعة الإسلامية والتقاليد الموروثة والطقوس.[٣٠]

يعد قيام سلطنة سنار مرحلة مهمة لإنشاء إدارة موحَّدة في البلاد المترامية الأطراف، إذ لم تكن السلطة السياسية والإدارية في سنار نابعة من حكومة بالمعنى الحديث. والجدير بالذكر أن الدولة بمعناها اليوم تتكون من أربعة عناصر رئيسة، هي الأرض، والسكان، والحكومة، والسيادة الداخلية والخارجية.[٣١] ولكن كانت سلطنة سنار في بداية حكمها – برأي البعض- تمثل حكومة إقطاعية؛ فقد كانت ملكية الأرض للسلطان، وكان للزعماء ورجالات القبائل الحق في حكم قبائلهم وفقاً لأعرافهم مع الالتزام بتقديم الجزية السنوية لملك سنار.

(٢٩) أنشئت أربجي قبل ثلاثين عاماً من قيام مدينة سنار التي أسسها الملك عمارة دنقس، أنظر: محمد النور ضيف الله، مصدر سابق، ص ٢٦.

(٣٠) النور جادين (٢٠٠٠): الاتصال فى الحضارات السودانية: الاتصال في مملكة الفونج نموذجاً، فاس للنشر، الخرطوم، ص ٧٥-٧٦.

(٣١) أنظر: عبد السلام سيد أحمد (١٩٩١): الفقهاء والسلطنة في سنار: قراءة في تاريخ الإسلام والسياسة في السودان (١٥٠٠-١٨٢١)، براغ، ١٩٩١، ص ٢٠.

أولاً: فترات الحكم في سلطنة سنار

يمكن تقسيم فترة الحكم في سلطنة سنار إلى ثلاث مراحل كما يلي:

المرحلة الأولى

بدأت بعمارة دنقس، المؤسس لسلطنة سنار (١٥٠٤ – ١٥٣٤)، واستمرت طيلة القرن السادس عشر حتى عام ١٦٠٤م حيث بدأ عهد السلطان التاسع عبد القادر بن أونسة. وتعتبر هذه الفترة فترة تأسيس واستقرار السلطنة من ناحية إرساء نظمها وقواعدها وعلاقاتها الداخلية والخارجية وضمان حدودها الجغرافية.[٣٢]

المرحلة الثانية

غطت هذه المرحلة القرن السابع عشر الميلادي، وبدأت بعهد السلطان عبد القادر بن أونسة عام ١٦٠٤م وانتهت بخلع السلطان الثامن عشر بادي الرابع (أبو شلوخ). وتم في بداية هذه المرحلة حسم تمرد العبداللاب ومقتل زعيمهم الشيخ عجيب الكافوتة فى معركة كركوج ١٦١١م. وشهدت كذلك العديد من الاحتكاكات وبخاصة مع الحبشه. " كانت الحبشة تهدد سلطنة الفونج فما كان من عبد القادر إلا أن قبل حماية أثيوبيا لسلطانه، وجاء من بعده سلاطين رفضوا هذه الحماية حاربوا أثيوبيا وتدهورت العلاقة بين الدولتين، وجرت هذه الحروب فيما بين (١٦١٨-١٦١٩)".[٣٣]

(٣٢) قيصر موسى الزين (١٩٩٨): فترة انتشار الإسلام والسلطنات (٦٤١-١٨٢١)، الحرم للمنتجات الورقية، أمدرمان، ص ٥٠.

(٣٣) محجوب عمر باشري، مرجع سابق، ص ٤٤.

عموماً فقد كانت هذه المرحلة هي مرحلة الاستقرار والتماسك النسبي وبناء قدرة السلطنة السنارية على التصدي للأفكار الخارجية.[٣٤] كما تميزت هذه المرحلة عن المرحلة الأولى بدخول البعثات التبشرية والدبلوماسية الأوربية إلى أراضي سنار فى طريقها إلى الحبشة، وبزيادة التوتر فى علاقات سنار والحبشة ووقوع الحرب الحبشية الثانية في ١٧٤٤م. أما على الصعيد الداخلي فقد تميزت تلك الحقبة بالصراع السافر بين سلطنتي سنار والفور حول كردفان، والتنازع الداخلي في سنار بين فروع الأسرة الحاكمة، والذي تدخل فيه الوزراء والعسكر، مما قاد إلى خلع السلطان. ولقد كانت مرحلة اتسمت بالتفكك الداخلي والاضمحلال في نظام الحكم، وفيها برزت الأخطار الخارجية والانقسام والتآمر الداخلي رغم قوة السلاطين.[٣٥]

المرحلة الثالثة

امتدت هذه المرحلة من ستينات القرن الثامن عشر حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر (١٧٦٢-١٨٢١). وقد سيطر فيها الهمج على الدولة انتهت هيبة السلطان ونفوذه، مما أثر ذلك سلباً على تماسك واستقرار السلطنة، حيث دخلت فى اضطرابات وفوضى شاملة، ولم تتمكن من مقاومة الغزو التركي - المصري. وقد حكم في هذه الفترة أحد عشر سلطاناً كان آخرهم بادي السادس الذي تنازل عن السلطنة في وثيقة كتبها فى ٢/ نوفمبر ١٨٢١م وسلمها لقائد حملة الغزو التركي- المصري.[٣٦]

(٣٤) قيصر موسى الزين، مرجع سابق، ص ٥١.

(٣٥) نفس المرجع، ص ٥٢.

(٣٦) نفس المرجع، ص ٥٢.

على كلٍّ، فقد برزت مملكة الفونج وأصبحت نموذجاً من نماذج الممالك فى السودان، وذلك نتيجةً للتفاعل الاجتماعي والتصالح الذي ساد المملكة في فترات حكمها الأولى (أي لقرن من الزمان)، وكان نتاج ذلك إبرازاً لحضارة مملكة سنار التي تشكَّلت ولمجدها. والذي ساعد على ذلك هو النهج الذى كان يتبعه حكام الفونج آنذاك، والإدارة المتميزة بالأخص في مجال الحكم وسيطرتهم على التجارة الخارجية التي كانت تعتبر من أهم المقومات الأساسية التي ساعدت على إرساء أركان مملكة الفونج.

ثانياً: الحكم والإدارة في عهد سنار: رؤية عامة

إن أهم الصعوبات التي واجهت السلاطين في السلطنة الزرقاء – رغم تمتعهم بسلطات واسعة – تمثلت في اتساع البلاد وصعوبة المواصلات. وكان السلاطين لا يطلبون من زعماء القبائل غير دفع الخراج والالتزام بذلك بانتظام والخضوع الاسمي لهم. أما أقاليم السلطنة فقد كانت تحت سيطرة زعماء القبائل الذين كانوا يتمتعون بسلطات واسعة كل على إقليمه. وفي ذات الوقت كانوا يقدمون هدايا إلى سلطان سنار من أجل المحافظة على علاقاتهم بالسلطنة.

كانت اللبنة الأولى للنظام السياسي والإداري الذي سارت عليه دولة سنار الإسلامية هي الاتفاق الذي أبرم بين عمارة دنقس وعبدالله جماع. وبناءً على ذلك تم ترتيب نظام الحكم والإدارة في السلطنة منذ إنشائها. فلقد اختار مؤسسا الدولة النظام الملكي الوراثي أسلوباً لممارسة الحكم والإدارة. وبموجب هذا النظام أصبح عمارة دنقس زعيم الفونج ملكاً على الدولة يمارس سلطاته من عاصمته التي اختطها، وهي مدينة سنار، بينما يكون عبد الله جماع وقومه نواباً

عنهم في إدارة الأقاليم التابعة لهم في القسم الشمالي من الدولة، وعاصمتهم قري.[٣٧]

ولم يكن هذا النظام الملكي غريباً على السودان، فلقد كانت مملكتا المقرة وعلوة تمارسان نظماً ملكية، وهي نظم وراثية مألوفة أيضاً في الدول الإفريقية والبلاد العربية بصفة عامة منذ قديم الزمان. ولم يكن النظام الملكي لدولة الفونج الإسلامية نظاماً مستبداً كما يظهر للوهلة الأولى، وإنما كان نظاماً يأخذ بالشورى. فللدولة مجلس شورى يساعد في اختيار الحكام وتسيير شؤون الدولة، وكذلك من مهام هذا المجلس عزل السلطان إذا ارتكب خطأً يستحق بموجبه العزل.

كانت مملكة سنار منقسمة إلى عدة ممالك ومشيخات من نوبة وسود وحضر وبادية، وكل ملك أو شيخ يدفع الضريبة المفروضة عليه لملك سنار مع وجود نوع من الاستقلال النسبي. وتمثلت الممالك والمشايخ في مملكة فازوغلي، ومملكة بني عامر، ومملكة الحلنقة، ومشيخة خشم البحر، ومشيخة الحمدة. وخضعت عدد من هذه الممالك والمشيخات لسلطنة سنار عن طريق العبد اللاب الحلفاء الرئيسيين للسلطنة منذ إنشائها. فهذه الممالك هي: مملكة الجعليين، ومملكة الجموعية، ومملكة الميرفاب، ومملكة الشايقية، ومملكة الرباطاب، ومملكة الخناق، ومملكة أرقو، ومملكة الخندق.[٣٨]

(٣٧) أرشيف التاريخ العالمي الإسلامي، تقويم الدور الحضاري لدولة الفونج الإسلامية (١٥٠٤م – ١٨٢١م)، ٢٠٠٨ في: www.startimes.com/?t=7800539 (24LJune 2017)

(٣٨) نعوم شقير (١٩٨١): تاريخ السودان، الخرطوم، دار عزة للنشر والتوزيع، ص١٤٠.

كان هذا التنظيم الإداري الذي صممه حكام السلطنة السنارية منذ فترة قصيرة من إنشاء دولتهم يشبه النظام اللامركزي أو ربما الكونفدرالي، كما سيتضح ذلك في المحور القادم. وكان القصد من هذا التنظيم هو كسب القوة في إطار القبيلة والمحافظة على الحياة في مملكة الفونج واستمراريتها، وسد الفراغ الذي كانت تعاني منه بعض القبائل المكوِّنة لمجتمع المملكة.[٣٩]

وفي إطار العلاقات الخارجية كان لمملكة سنار دور لا تخطئه العين في مد جسور العلاقات مع الممالك المجاورة لها من ناحية الغرب، مثل مملكة تقلي ومملكة المسبعات وغيرهما. فلقد انفتحت سلطنة سنار أيضاً على العالم الخارجي عن طريق ميناء سواكن على البحر الأحمر، وعن طريق دنقلا – أسيوط، والطريق الغربي المعروف بدرب الأربعين، والذي يمتد من شندي على النيل إلى كردفان ودارفور، ثم عبرهما إلى غرب أفريقيا أو العكس. ثم انفتحت على طريق آخر يتبع النيل الأزرق نحو الجنوب الشرقي حتى بلاد الحبشة. أي كان هنالك تواصل مع كافة هذه الجهات المذكورة رغم بعد المسافات وصعوبة المواصلات والاتصالات.

ما بين اللامركزية والكونفدرالية في عهد السلطنة السنارية

كان السودان في العهد النوبي المسيحي يحكم عن طريق الحكم الإقليمي، ولم يكن هنالك ذكر للقبيلة والعنصر قبل دخول العرب إلى السودان، وكان ابن الأخت هو الوريث الأوحد للعرش في مملكتي المقرة وعلوة، وتعتبر كل الأراضي

(٣٩) أشارت الكتب السماوية إلى عدد من الممارسات التنظيمية التي تدل على عمق جذور بعض مبادئ التنظيم المهمة. للمزيد من المعلومات حول التنظيم أنظر: د. قيس محمد العبيدي (١٩٩٧): التنظيم: المفهوم والنظريات والمبادئ، الإسكندرية، مطابع رويال، ص٤٠-٤٦.

ملكاً له دون غيره.[٤٠] وعندما قامت سلطنة سنار - بعد انتهاء آخر معاقل المسيحية في سوبا- اتخذت عند بداية تأسيسها النظام المركزي القابض، إذ أن نطاق السلطنة كان يتكون من دائرة مركزية. ثم ما لبثت قليلاً أن تحولت إلى النمط اللامركزي بعد أن توسعت وضمت مناطق مترامية الأطراف تمثل نفوذ السلطنة الممتد خارج نطاق الدائرة المركزية. فالنظام اللامركزي يناسب طبيعة النظام القبلي العشائري الذي ينزع إلى الحرية، والذي كان سائداً في السلطنة السنارية نوعا ما، كما كان يناسب أيضاً طبيعة التحالف بين الفونج والعبداللاب، الذي يعطي العبداللاب قدراً كبيراً من الحرية والاستقلال الذاتي في ظل التبعية لملوك سنار داخل الدولة الواحدة. ويرى اسبولدنج أن "سلطنة سنار لم تكن فدرالية قبلية ذات توجه عربي – إسلامي منذ إنشائها، كما هي الفكرة السائدة عند الجمهرة العظمى من المؤرخين، بل كانت دولة ذات قدر من التماسك الداخلي مثلت نهضة نوبية متأسلمة".[٤١] ونضيف بأن المملكة السنارية لم تتخذ نمط الحكم الإسلامي المبني على الخلافة الإسلامية، مع أنها كانت تطبق الشريعة الإسلامية في نطاق المملكة، خصوصاً فيما يتعلق بالأحوال الشخصية، وكان الفقهاء فيها يمثلون الطبقة الثالثة بعد الملوك والوزراء، كما كان القضاء ورجال الإفتاء من هؤلاء الفقهاء.

وفي المرحلة الأولى لحكم السلطنة السنارية التي أشرنا إليها سابقاً طبقت سياسة تنظيمية جديدة ابتدرها السلطان دكين بن نايل (١٥٧٠-١٥٦٣)، حيث

(٤٠) محجوب عمر باشري، مرجع سابق، ص٨-٩.

(٤١) عبد السلام سيد أحمد، مرجع سابق، ص١٤.

= أعد اسبولدنج، في جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٩٧١، بحثاً بعنوان "ملوك الشمس والظل" وهو عن تاريخ العبداللاب. كما نشر كتاباً مع أوفاهي عن تاريخ سلطنة سنار في ١٩٧٤.

"رتب الدواوين أحسن ترتيب وجعل لهم قوانين مربوطة لا يتعداها أحد من جميع مملكته، وجعل لكل جهة من جهات مملكته رئيساً معلوماً...".[٤٢] ويقول بعض الكتاب إن السلطنة السنارية تكونت في مرحلة من مراحلها من أربع ولايات رئيسة وهي: التاكا (وهي اليوم كسلا)، وولاية عطبرة عند نهر عطبرة، وولاية خشم البحر التي تحكم مناطق سنار، وولاية أليس (الكوه) على النيل الأبيض، وهي تمتد إلى كردفان.[٤٣] وأياً كانت التسمية للكيانات التي تكونها كسلطنة سواء سميت ولايات أو أقاليم، إلا أنه لا يمكن أن نصنِّف التنظيم الإداري فيها، وإن رتبت دواوينه – على نحو ما رأينا- بأنه نظام فيدرالي مكتمل الأركان أو نظام شبه فدرالي. فلربما يصنَّف النظام الإداري في سلطنة سنار في مرحلة من مراحلها تكوينها، خاصة بعد أن تمددت وأنشأت علاقات مع الممالك المجاورة لها مثل تقلي أو المسبعات في وسط كردفان أو الفور، بأنه نظام كان أقرب إلى النظام الكونفدرالي منه إلى النظام اللامركزي، رغم أن سلطنة سنار كانت في معظم مراحل تطورها موغلة في اللامركزية.

من جانب آخر، فإن التقاليد المرعية في سلطنة سنار كان من ضمنها إشراك زعماء القبائل من الأقاليم في المشاورات الخاصة بشؤون الدولة إذا ما كانوا حاضرين في سنار.[٤٤] ولم يكن في الواقع أن السلطنة السنارية تشكلت

(٤٢) مكي شبيكة (تحقيق) (٢٠٠٩): تاريخ ملوك السودان، الطبعة الأولى، الخرطوم، الدار السودانية للكتب، ص ٢٦.

(٤٣) محجوب باشري، مرجع سابق، ص ٤٦.

(٤٤) قيصر موسى الزين، مرجع سابق، ص٥٤.

من ثلاث مستويات سياسية – كما يقول بذلك البعض، وهي: مستوى السلطنة – أي المستوى القومي، ومستوى المانجلية – أي المستوى الإقليمي، ومستوى المكوية – والتي تشكل المستوى المحلي.(٤٥) فهذه المستويات وتقسيماتها ونظم الإدارة فيها كانت متباينة إلى حد كبير، وتفتقد الدقة والتنظيم الإداري الذي يقوم على نموذج واحد. بل كانت السلطة في السلطنة متمركزة عند السلطان الذي يتمتع بها بشكل مطلق، وهو المالك الاعتباري لكافة الأراضي التي تضمها حدود السلطنة، وفي ذات الوقت يساعده المشايخ بتفويض منه (Delegation) في المستويات الأدنى في عملية جمع الضرائب.

يتضح من خلال هذا التحليل أن النظام الذي اتبع في السلطنة السنارية في أطول فترات الحكم هو النظام اللامركزي لحد بعيد.(٤٦) ورغم ما تخللته من اضطرابات سادت المملكة السنارية في أواخر عهدها كان هو النظام الأمثل والأوفق للحكم والإدارة في تلك المرحلة بخصائصها المعروفة.(٤٧) وتخللت فترة حكم الفونج أيضاً إقامة نظام يمكن أن نطلق عليه نظام كونفدرالي؛ هذا عندما تمددت السلطنة السنارية في القرن الثالث من عمرها وأقامت علاقات

(٤٥) عبد السلام سيد أحمد، مرجع سابق، ص ٢١.

(٤٦) في أغلب الأدبيات الحديثة يتم تناول مفهوم اللامركزية باعتباره يركز بشكل أساسي على المؤسسات التي تعنى بالسلطة والموارد. إن اللامركزية هي نقيض المركزية، فهي درجة عدم تركيز الصلاحية أو أنها نظام تشتت الصلاحية وتوزيعها بين الأشخاص والمستويات الإدارية المختلفة في المنظمة أو على مستوى الدولة. للمزيد من المعلومات حول مفهوم اللامركزية أنظر:

Aaron Shneiders (2003): "Decentralization: conceptualization and measurement studies". In: *Comparative International Development*, vol. 38, No.3, p, 35.

(٤٧) عبد السلام سيد أحمد، مرجع سابق، ص ٢٧.

مع مشيخات وممالك مجاورة في كردفان ودارفور كما ذكر من قبل.[٤٨] وبالرغم من الاضطرابات التي حدثت والحروب التي اندلعت بين بعض هذه الممالك، لكن التنظيم يعد كونفدرالياً بالنظر للعلاقات الخارجية التي تربط بين هذه الممالك.

الصراع السياسي حول السلطة والحكم في سنار

شهدت فترة الحكم في سلطنة سنار بعض النزاعات مع السلطة المركزية المتمثلة في الملك والوزير الذي يعتبر نائباً للملك. ففي عهد الملك عدلان (١٦٠٥ – ١٦١٢) كمثال – في بداية القرن الثاني من الحكم- حدث خلاف بين الفونج والعرب، حيث خرج عجيب المانجلك على سلطة الدولة المركزية، مما اضطر حكومة سنار لمقابلته في معركة، تحديداً في موقعة كركوج جنوبي سنار على الضفة الشرقية للنيل الأزرق، حيث حدثت المواجهة التاريخية الثانية بين الفونج والعبدالاب،[٤٩] وقتل فيها الشيخ عجيب المانجلك وانهزم جنوده، وفرت عائلته إلى جهة دنقلا.[٥٠] انعكس هذا الحادث بصورة عامة على عدم استتباب

(٤٨) تُكَّون الاتحادات الكونفدرالية بانضمام كيانات متعدِّدة موجودة من قبل لتشكيل حكومة مشتركة لأغراض الشؤون الخارجية، أو الدفاع، أو لأغراض اقتصادية، غير أن الحكومة المشتركة تعتمد على الحكومات المكونة؛ فتتألف من ممثلين عن الحكومات المكونة. وعلى أثر ذلك أقامت الثورة الأمريكية من الولايات المستقلة حديثاً كونفدراليه في العام ١٧٨١. ولكن تحولت جوانب النقص فيها على إثر مؤتمر فلادلفيا في ١٧٨٧ إلى أول نظام فيدرالي حديث. كما حولت سويسرا نظامها الكونفدرالي، بعد حرب قصيرة، إلى نظام فدرالي في ١٨٤٨. للمزيد من المعلومات حول ماهية الكونفدرالية أنظر:
Ronald L. Watts (1999): *Comparing Federal Systems*, Queen's University Kingston, Ontario, Canada K7L 3n6, p. 2.

(٤٩) عبد السلام سيد أحمد، مرجع سابق، ص ١٦.

(٥٠) مكي شبيكة (تحقيق) (٢٠٠٩): مرجع سابق، ص ٢٧.

الأوضاع الأمنية في سنار. وكان قد فكر الملك عدلان في كيفية إعادة الأمور إلى نصابها والعمل على إشاعة الأمن من جديد من خلال التصالح مع أبناء الشيخ عجيب. وقد هداه تفكيره إلى الاستعانة والاتصال بالولي الشيخ المشهور بالصلاح إدريس ود الأرباب الذي كان يقيم في العيلفون للمساعدة في حل هذه المشكلة، حيث كان لها تداعيات سلبية على مسرح السياسة والإدارة حينئذ. ومما سهّل أمر الحل للمشكلة أن الشيخ ود الأرباب كان ذا صلة بالشيخ عجيب المقتول، الأمر الذي جعله لا يتردد في الاستجابة لقبول طلب سلطان الفونج للمساعدة في تحقيق المصالحة بين الطرفين. سافر الشيخ ود الأرباب إلى دنقلا وأعطى الشيخ العجيل ابن الشيخ عجيب الأمان، وعاد معه من دنقلا التي احتمى فيها، ومن ثم تم الصلح بين الأمير العائد وملك الفونج.[٥١] وبهذا تجدَّد الحلف بين الجانبين، حيث نصب ملك الفونج الشيخ العجيل على منطقة قري التي حكمها لمدة ثلاث سنوات، ومن ثم سار خلفه على خط السلف حتى فترة آخر حاكم من ملوك الفونج، وهو بادي السادس.[٥٢]

وكانت هنالك مشكلات إدارية واضطرابات داخلية قد حدثت في فترة ثلاثة عقود قبل نهاية السلطنة السنارية. فلقد حكم الملك بادي السادس بن طمبل (١٧٩١ - ١٨٢١) نحو تسع وعشرين سنة، ويعد آخر ملوك الفونج، وفي عهده شهدت سلطنة سنار اضطرابات عديدة.[٥٣] ولما أصبح دكين العادل

(٥١) نفس المرجع، ص ٢٧.

(٥٢) ياسر المك (٢٠٠٩): مخطوطات المك عمر عدلان المك حفيد الأسرة، متحف أسرة المك عدلان.

(٥٣) نفس المرجع.

سلطاناً عدَّل في نظام الحكم، قلل من شأن حكم الفرد المطلق، وعيَّن مجلساً من الأعيان مكوَّناً من كبار رجال العائلة المالكة، وعظماء السلطنة، وجعل المجلس يجتمع أربعة أيام في الأسبوع، وله سلطات عليا بمقتضاها يستطيع عزل السلاطين.(٥٤)

أما سنار العاصمة، فلم تكن السلامة على حياة السلاطين بقدر معقول؛ فقد كانت مسرحاً لحوادث دامية، إذ كثرت فيها الاغتيالات السياسية، وذلك بسبب المؤامرات التي كان يدبرها الوزراء. والوزراء أنفسهم كانوا في حالة يرثى لها بسبب فقدان هذا الأمن. أيضاً في كل آونة كان هنالك سلطان يهوي من عرشه، ومثلهم كان كل وزير يفقد حياته من فترة لأخرى. وبالرغم من أن يد الوزراء الهمج كانت هي العليا في إدارة شؤون البلاد، إلا أنهم اختلفوا بين أنفسهم وأضحى الواحد منهم يقتل الآخر ليرقى إلى كرسي الوزارة بدلاً عنه. ومع كل ذلك فقد كان هؤلاء الوزراء كثيراً ما يزعزعون مكانة السلطان ويزيحونه عن العرش. وأصبحوا هم الذين يعيِّنون الملوك ويعزلونهم، بل قد أضحى الأمر فوضى إلى الحد الذي تولى فيه ثلاثة ملوك أمر السلطنة في سنة واحدة، وعزلوا من عرش السلطنة الواحد تلو الآخر في تلك الفترة القصيرة.(٥٥) وفي الفترة الأخيرة للسلطنة سيطر الهمج الوزراء على الدولة، وانتهت هيبة السلطان، مما أثر على تماسك الدولة التي دخلت في حالة من الفوضى الشاملة، ولم تتمكن حتى من مجرد التفكير في رد الغزو التركي في عام ١٨٢١.

(٥٤) ضرار صالح ضرار، مرجع سابق.

(٥٥) نفس المرجع.

وهكذا حكم سلطنة سنار حوالي خمسة وعشرين سلطاناً في فترة تزيد قليلاً على القرون الثلاثة، وكان هؤلاء السلاطين يحكمون قبضتهم على شؤون المملكة حتى ١٧٦٢م عندما خلع الهمج الوزراء ومعهم العسكر، السلطان بادي الرابع وأصبحوا يتحكمون فى السلطنة حتى مجيء الأتراك المصريين فى ١٨٢١م كما ذكر.[٥٦]

أسباب انهيار سلطنة سنار

هنالك مجموعة من العوامل الداخلية القبلية والاقتصادية والسياسية أسهمت في تفكك وزوال دولة الفونج. لقد كان الصراع القبلي الذي تجلى في تمرد بعض القبائل مثل الشايقية والهدندوة والعبداللاب على المركز في سنار أو الحلفايا، كان نتاجه رفض دفع الزكاة والعشور من بعض القبائل، مما أفقد السلطنة السنارية مصادر الضرائب الكافية. وكذلك استقلال بعض الطرق الدينية أو العائلات الدينية عن المركز، حيث برزت ممالك أو دويلات دينية شبه مستقلة مثل: عائلة حسن ود حسونة، أو عائلة المجاذيب في الدامر أو غيرهما. لقد نتج عن ذلك من أن أغلب مما كان يُتحصل عليه من الزكاة لم يعد يورد إلى العاصمة سنار، بل أصبح كثير من التجار والأغنياء في تلك المناطق يسلمون الزكاة لقادة الطرق الصوفية المتفرقين هنا وهناك.

وعندما زاد حجم ووزن طبقة التجار أصبحت التجارة تعتمد على التبادل النقدي أكثر من نظام المقايضة أو المبادلة الذي كان سائداً في كثير من أجزاء دولة الفونج. ونتاج لذلك دخل التجار في صراع مع السلطان من أجل كسر احتكاره للتجارة الخارجية، وظهرت عملات جديدة كسرت سيطرة السلطان

(٥٦) قيصر موسى الزين، مرجع سابق، ص ٥٠.

على التحكم في إصدار النقد، وكثر التهرب من الضرائب والزكاة، ومحاسبة تجارة السلطان، ووضع العراقيل في سبيل تطورها. وباختلال هذه الآليات، كما أشار د. محمد إبراهيم أبو سليم في كتابه (الفونج والأرض) اضطرت الدولة للتعويض عن ذلك إلى زيادة العبء الضريبي على المزارعين، مما زاد السخط على النظام.[٥٧]

عموماً، كان التنظيم الإداري في السلطنة السنارية فضفاضاً، والشعوب المكونه لها متباينة، يضاف إلى ذلك سعة رقعة البلاد والتنافس الكامن بين الفونج والعبد اللاب، أدى ذلك إلى التوتر والاضطرابات.[٥٨] ووصلت مملكة الفونج في أواخر عهدها إلى مرحلة من التفكك وفقدان الثقة على أعلى مستوياتها من الحكم، إذ أن بعض زعماء القبائل فقدوا ثقتهم في تحالفهم مع سلاطين الفونج، حيث سعوا إلى محمد علي باشا طالبين تدخله في شؤونهم المصطرعة.[٥٩] ولما تبيَّن للوفد الذي أرسله محمد علي إلى سنار "أن ملك الفونج ووزراءه من الهمج لم تعد لهم سلطة مؤثرة في دنقلا"،[٦٠] تيقن الباشا من الضعف العسكري والتمزق السياسي الذي وصلت إليه مملكة سنار. ونتيجة لهذا أرسل محمد على باشا جيوشه إلى السودان لغزو سنار وكردفان في عام ١٨٢٠- ١٨٢٢م، لم تجد هذه الجيوش مقاومة تذكر عدا مقاومة الشايقية والجعليين. وكانت سلطنة

(٥٧) محمد إبراهيم أبوسليم (١٩٦٧): الفونج والأرض، وثائق تمليك، شعبة أبحاث السودان، جامعة الخرطوم، ص ٣٢.

(٥٨) يوسف فضل حسن (٢٠٠٣): مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، مرجع سابق، ص ٧٠.

(٥٩) محمد سعيد القدال، مرجع سابق، ص ٣٧.

(٦٠) نفس المرجع، ص٣٩.

الفونج – كما توقع الغزاة – في حالة احتضار وتفكك داخلي، وعزلة شبه تامة عن العالم الخارجي. وباستيلاء الأتراك على السودان، دخل السودان عهداً جديداً في العام ١٨٢١ واتخذ من ثم نظاماً ممعناً في المركزية بدلاً عن النظام الذي كان سائداً.

خاتمة

تناولت هذه الورقة لمحات من تاريخ سلطنة سنار التي امتد عمرها لأكثر من ثلاثة قرون، حيث كان لها دورها الكبير في نشر الإسلام وتحويل مجتمع رعوي بدائي يدين غالبيته بالمسيحية والمعتقدات التقليدية إلى الإسلام. ولقد ركزت الورقة على جانب الحكم والإدارة مع عدم إغفالها لتناول أصل الفونج، والتحالف الذي تم بينهم والعبداللاب لإقامة نظام للحكم تخللته العديد من الأحداث الجديرة بالمزيد من البحث والدراسة.

أوضحت الورقة في تناولها لتاريخ الحكم في السلطنة السنارية المراحل الثلاث التي مرت بها مسيرة الحكم من حيث الاستقرار السياسي والتقلبات التي حدثت والصراع السياسي الذي شهدته خلال تاريخها الطويل، وبخاصة في الثلث الأخير من عمرها المديد. ولم تغفل الورقة جانب التنظيم الإداري الذي اتبعته سلطنة سنار كأسلوب مناسب للحكم باعتباره نظاماً إدارياً سياسياً يناسب طبيعة السلطنة القبلية العشائرية. فلقد أوضحت الورقة أن النمط اللامركزي من الحكم كان هو الأفضل، وذلك لطبيعة سلطنة سنار المترامية الأطراف، المتعددة المشيخات والممالك، والمتباينة في عادات أهلها الذين يتسمون بالتنوع الثقافي.

من أهم النتائج التي توصلت إليها الورقة أن الهيكل التنظيمي في السلطنة

السنارية لم يكن دقيقاً، إذ قام على مستويين أحدهما في سنار العاصمة والثاني بمناطق المشيخات (أي دور القبائل والعشائر) تم بموجب هذا الهيكل تفويض السلطات من جانب السلطان إلى أولئك المشايخ و"المكوك" لأجل جمع الضرائب وتسوية النزاعات المحلية. وقد أوضحت الورقة أن بعض فترات السلطنة السنارية شهدت قيام نظام كونفدرالي، خاصة بعد توسعها وتواصلها مع جيرانها من الممالك الأخرى (مثل مملكة المسبعات وتقلي في كردفان). إن المرحلة الأولى من عمر مملكة الفونج التي بدأت منذ أن تقلد عمارة دنقس المؤسس لسلطنة سنار (١٥٠٤ – ١٥٣٤) الحكم، وحتى عام ١٦٠٤م حيث بدأ عهد السلطان التاسع عبد القادر بن أونسة، كانت تمثل فترة تأسيس واستقرار للسلطنة من ناحية، وإرساء نظمها وقواعدها وعلاقاتها الداخلية والخارجية من ناحية أخرى. كما أبانت الورقة أنه قد حدث تمزق داخلي وضعف عسكري في أواخر عهد السلطنة السنارية بسبب دخول الهمج إلى الحلبة السياسية، وبروز دورهم في عزل السلاطين. كما أكدت الورقة في نتائجها التي توصلت إليها أن من أهم أسباب انهيار الحكم في مملكة الفونج، التفكك وفقدان الثقة بين مكوِّناتها على أعلى مستوياتها من الحكم. إن أهم ما توصي به هذه الورقة هو أهمية إجراء المزيد من الدراسات والبحوث فيما يختص بشكل الحكم الكونفدرالي الذي طبق في جزء من عهد السلطنة السنارية، ذلك لأن البحوث التي كتبت في هذا الجانب ما زالت شحيحة.

الآثار البيئية للمخلفات الصلبة الناتجة عن الصناعات الكيميائية بمنطقة الخرطوم بحري الصناعية

منى علي محمد أحمد

مستخلص: تسعى هذه الورقة إلى التعرف على التأثير البيئي للنفايات الصلبة الناتجة عن الصناعات الكيميائية بمنطقة الخرطوم بحري الصناعية. جمعت المادة البحثية عبر الاستمارة وفحص تربة مكب النفايات. أظهرت النتائج أنه يُتخلص من بعض المخلفات الصلبة بإعادة استخدامها، وبعضها يتم بيعه، والخطرة منها تعالج كيميائياً قبل التخلص النهائي منها في شبكة الصرف الصحي. غير أن جل نفايات هذا القطاع يتم التخلص منها بتجميعها في مكب دون معالجة الخطر الكائن فيها، ويترتب على ذلك آثار سالبة على عناصر البيئة، خاصة التربة. أما تلك التي تنقل إلى المكب النهائي فتحرق عشوائياً، مما يخلِّف الكثير من الملوثات الخطرة، خاصة مركبات الدايوكسين.

Abstract: This paper investigates the environmental impact of solid refuses of the chemical industry city of Khartoum North. Research data are collected through a questionnaire and analysis of the landfill's soil. The results revealed that some of the solid wastes are disposed of by their recycling, some through sale, while some others are treated chemically before their final disposal in the sewage. But most of them are gathered in a landfill without treating the danger they contain, which engenders negative effects on environmental elements, especially the soil. Those (solid wastes) that are taken to the final landfill are burnt in an unscientific manner, thus, emitting a lot of dangerous pollutants, especially dioxin composites.

كلمات مفتاحية: المخلفات الصناعية الصلبة، معالجة المخلفات، التخلص النهائي من النفايات الصناعية الصلبة

المقدمة

من إفرازات عمليات الإنتاج الصناعي، المخلَّفات الصناعية الصلبة، وتضم كافة المخلَّفات الناتجة عن العمليات الصناعية ذات الجدوى الاقتصادية وغير المجدية اقتصادياً على حد سواء، حيث أن المخلَّفات التي لا يمكن الاستفادة منها بإعادة استخدامها أو تدويرها أو بيعها تصبح نفايات صناعية. أما النواتج

العرضية التي يستفاد منها، ولها جدوى اقتصادية، فهي ليست من النفايات الصناعية.

تضم النفايات الصناعية الصلبة ما يعرف بالنفايات الخطرة والتي جل مصدرها، الصناعات الكيميائية، حيث تتسم بخواص تؤثر سلباً على صحة الإنسان ونظم البيئة، وذلك في حال عدم توفر الشروط الخاصة بنقل هذه النفايات ومعالجتها، إذ تضمن هذه الشروط سلامة الإنسان وصحة البيئة.[١]

تحوي النفايات الصناعية الخطرة عناصر لا يسهل تحللها، وكيماويات ومواد ذات آثار مزمنة وآنية على صحة الإنسان والبيئة، ومن ذلك، النفايات العضوية للصناعات الكيميائية والتي يكمن خطرها في تركها على الأرض دون معالجة أو معالجة بطريقة غير سليمة؛ فتتحلل وتتسرب الى التربة محدثة تلوثها.[٢] كما أن حرق هذه النفايات عشوائياً يولِّد العديد من الغازات والمركبات الضارة بالإنسان والنظم البيئية.

تعزى المشكلات الصحية والبيئية التي تسببها النفايات الصناعية إلى قلة الوعي لدى بعض أصحاب المصانع، والتخلص من هذه النفايات بطريقة غيرآمنة بيئياً، بالإضافة الى سرعة التقدم الصناعي التي لم يواكبها – بنفس السرعة – تطوير الطرق السليمة للتخلص من النفايات.[٣] فكل ما تحدثه الصناعة من تلوث مرده الإخفاق في إدارة البيئة الصناعية. لذا فإن مكافحة

(١) سامح الغرايبة ويحيى الفرحان (٢٠٠٢): المدخل الى العلوم البيئية، الطبعة الرابعة. دار الشروق، عمان، ص ١٨٧.

(٢) محمد محمود سليمان (٢٠٠٠): البيئة والتلوث، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ص ٢٧٦.

(٣) سامح الغرايبة ويحيى الفرحان، مرجع سابق، ص ١٨٦.

التلوث الذي تحدثه الصناعات الكيميائية يتم من خلال الإدارة البيئية المتكاملة التي يحقق الإلتزام بها حماية البيئة. ومن ذلك التخلص النهائي من النفايات الصناعية بطريقة آمنة بيئياً تضمن عدم تسربها إلى البيئة، ومن ذلك طريقة الحرق الآمن وطريقة الطمر الصحي، حيث تؤدي طريقة الحرق الآمن إلى تقليل النفايات إلى ٩٠٪ وإمكانية تحويل الحرارة الكامنة في النفايات إلى طاقة حرارية. ولضمان حماية البيئة من الأبخرة والغازات تم تطوير محارق خاصة صممت وفق ضوابط فنية ينبغي الالتزام بها للحيلولة دون تسرب أي انبعاثات تضر بالنظم البيئية.(٤) ومن هذه المحارق الآمنة المحارق الدوارة – تستخدم لحرق النفايات المكوَّنة من حبيبات صغيرة الحجم – ومحارق الأشعة تحت الحمراء.(٥) أما طريقة الطمر الصحي فتستخدم لدفن النفايات الصلبة، وكذا الرماد الناتج عن عملية الحرق الآمن. لذا تعتبر الطريقة المنشودة والمكملة لطريقة الحرق الآمن. تعتمد هذه الطريقة على أسس فنية وضوابط صحية تتمثل في اختيار موقع الطمر وتصميمه، بالإضافة إلى الظروف والخصائص الهايدروجيولوجية الخاصة بالموقع.

على الرغم من تزايد المُخلَّفات الصناعية، إلا أن عمليات جمعها ونقلها وفرزها ومعالجتها وتدويرها، فضلاً عن التخلص النهائي منها، لم تواكب التطور العلمي، كما أن الافتقار إلى الخطط الواضحة المعايير للتعامل مع هذه

(٤) المنظمة العربية للتنمية الصناعية (٢٠٠٥): "التخلص من النفايات الخطرة"، مجلة التنمية الصناعية العربية (القاهرة)، العدد ٥٨، ص ٨٨.

(٥) زكريا محمد طاحون (٢٠٠٥): إدارة البيئة نحو الإنتاج الأنظف، سلسلة صون البيئة، مطبعة ناس، القاهرة، ص٨٧.

المخلفات والتلوث البيئي المترتب على ذلك أدى إلى ضياع فرص توظيفها كمورد يمكن الاستفادة منه.[٦]

لما كانت منطقة الخرطوم بحري الصناعية من أكبر المناطق الصناعية في السودان، حيث تضم العديد من القطاعات الصناعية الرئيسة، منها قطاع الصناعات الكيميائية الذي شهد نموا مطرداً، ولم تتم دراسة المردود البيئي لهذا القطاع، خاصة أن مصانع هذا القطاع تفتقر للاحصائيات الخاصة بحصر أنواع وخواص وكميات المخلفات الناتجة، فضلاً عن المعالجة المتبعة إن وجدت، والتخلص النهائي منها، فلكل هذا تسعى هذه الورقة لتسليط الضوء على المخلَّفات الصناعية الصلبة الناتجة عن قطاع الكيماويات، فضلاً عن تقييم الآثار البيئية للنفايات الناتجة عن هذا القطاع.

أهداف الدراسة

١/ معرفة نوعية المخلَّفات الصلبة الناتجة عن الصناعات الكيميائية.

٢/ توضيح خواص المخلَفات الصلبة الناتجة عن الصناعات الكيميائية.

٣/ تقييم طرق المعالجة للمخلفات والتخلص النهائي من النفايات الصلبة الناتجة من الصناعات الكيمائية.

٤/ معرفة الآثار البيئية للنفايات الصلبة التي تخلِّفها الصناعات الكيميائية.

(٦) نغم النعمة (٢٠١٦): إدارة المخلفات الصلبة في العراق: الواقع والطموح ، جامعة النهرين، ص ٩.

طرق جمع البيانات

اعتمدت هذه الدراسة في جمع المعلومات والبيانات على الاستبانة المقدمة لإدارات المصانع، تم تصميمها من أجل معرفة نوعية وخواص المخلفات الصلبة وطرق معالجتها والتخلص النهائي منها. بالإضافة إلى الاستبانة، تم تحليل عينات من التربة، حيث تم رفع عدد ثلاث عينات: اثنتان من تربة مكب النفايات بشمال شرق المنطقة الصناعية عمق كل عينة ٣٠سم، وعينة واحدة من وحدة التربة غير المتأثرة بالنفايات الصلبة من نفس السلسلة التصنيفية لعمق ٣٠سم (انظر الخريطة رقم ١). هذا الى جانب الملاحظة المباشرة أثناء الزيارات الميدانية لمصانع الدراسة، استفاد البحث منها في معرفة الوضع البيئي داخل المصانع خاصة التعامل مع المخلفات الصلبة والتخلص منها.

خريطة رقم (١) موقع عينات التربة

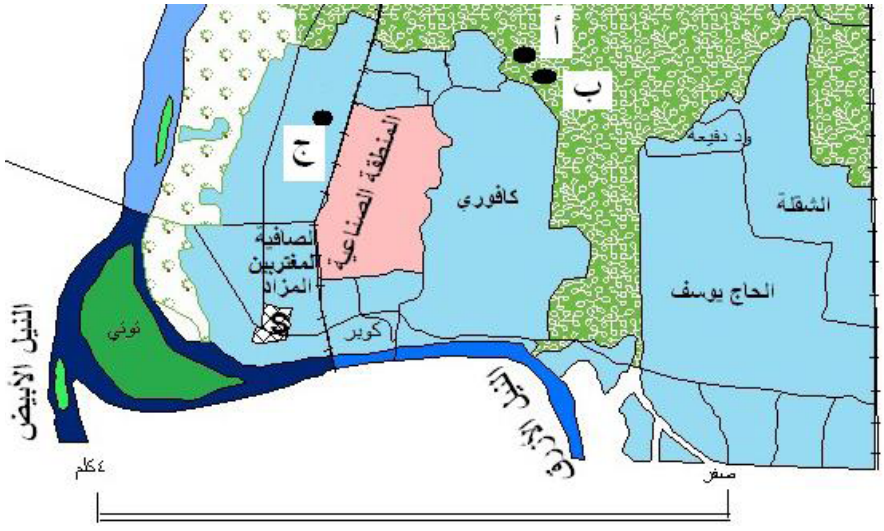

المفتاح: أ ، ب: عينات تربة المكب.

ج: العينة الضابطة.

منهجية الدراسة

تسعى هذه الورقة إلى دراسة المخلفات الصلبة الناتجة عن الصناعات الكيميائية بمنطقة الخرطوم بحري الصناعية، خاصة نوعية هذه المخلفات وخواصها وطرق معالجتها والتخلص النهائي منها فضلاً عن آثارها البيئية وذلك من خلال الإجراءت التالية:

أولاً: الاستبانة الخاصة بإدارات المصانع

اشتملت الاستبانة على أربعة أقسام. يحتوي القسم الأول على المعلومات العامة، ويضم القسم الثاني معلومات عن نوعية المخلفات الصلبة. أما القسم الثالث فيتضمن أسئلة ترمي إلى الكشف عن خواص المخلفات الصناعية الصلبة، ثم القسم الرابع الذي يتضمن أسئلة عن معالجة المخلفات الصلبة والتخلص النهائي من النفايات.

عينة المصانع

أوضح المسح الصناعي لمنطقة الخرطوم بحري الصناعية أن عدد مصانع قطاع الصناعات الكيميائية يبلغ ٧٢ مصنعاً،[٧] وتمثلت عينة الدراسة ٢٤ مصنعاً (٣٤٪ من مجمل مصانع القطاع) شملت جميع القطاعات الفرعية لقطاع الصناعات الكيميائية مع مراعاة التمثيل النسبي وكان الاختيار كالآتي:

(٧) هيئة الاستثمار والصناعة ولاية الخرطوم (٢٠٠٦): تقرير منطقة بحري الصناعية، الخرطوم.

جدول رقم (١) عينة مصانع الدراسة

(إستخدمت الدراسة الرموز بدلاً عن أسماء المصانع)

القطاع الصناعي	مصانع القطاع
قطاع البلاستيك	(١) س/٢ (٢)س/٧ (٣) س/٣ (٤) س/٦ (٥) س/١ (٦) س/٥ (٧) س/٤
قطاع الأدوية	(١) د/١ (٢) د/٦ (٣) د/٣ (٤) د/٢ (٥) د/٤ (٦) د/٥
قطاع الصابون	(١) ص/٢ للصابون الصلب (٢) ص/١ للصابون الصلب (٣) ص/٤ للصابون الصلب (٤) ص/٦ للصابون السائل (٥) ص/٣ لصابون البدرة (٦) ص/٥ لصابون البدرة
قطاع البوهيات	(١) ب/٣ (٢) ب/١ (٣) ب/٢
قطاع الكبريت	(١) ك/١ (٢) ك/٢

المصدر: هيئة الاستثمار والصناعة ولاية الخرطوم (٢٠٠٦)

ثانياً: فحوصات التربة

تم رفع العينات بواسطة آلة الـ Auger من الميدان، ووضعت في أكياس من القماش ونقلت إلى معمل التربة بالمركز القومي للبحوث بغرض التحليل، والذي تم وفق الخطوات التالية:

الخطوة الأولى: تجفيف عينات التربة هوائياً بالمعمل في درجة حرارة الغرفة.

الخطوة الثانية: طحن العينات وغربلتها بغربال مقياس ٢ مم.

الخطوة الثالثة: تقدير الخواص الكيميائية للتربة وتشمل:

١/ درجة التفاعل: تم قياس درجة التفاعل من مستخلص التربة ٥:١ (تربة: ماء)، وذلك باستخدام جهاز Class Meter Electrode.

٢/ التوصيل الكهربائي: تم قياسه باستخدام جهاز قياس التوصيل الكهربائي في مستخلص التربة ٥:١ (تربة : ماء) في درجة حرارة ٢٥ درجة مئوية، ورُصدت النتائج بالديسزميز/ متر.

٣/ الصوديوم: حُددت كمية الصوديوم مباشرة من محلول التربة ٥:١ (تربة: ماء) باستخدام مطياف اللهب، وحسبت النتائج بالملليمكافئ/ لتر.

٤/ الأملاح الذائبة: تشمل الكلوريد والبيكربونات، تم تحديدها في محلول التربة ٥:١ بواسطة المعايرة ورصدت النتيجة بالملليمكافئ/ لتر .

النتائج والمناقشة

خلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

أولاً: نوعية المخلفات الصلبة الناتجة عن مصانع الدراسة

أوضحت الدراسة الميدانية أن قطاع الصناعات الكيميائية ينتج عنه مخلفات صلبة متنوعة تشترك المصانع في بعضها وتختلف في بعضها الآخر، وذلك تبعاً للقطاع الصناعي الفرعي.

جدول رقم (٢) راجع الصناعة

راجع الصناعة	التكرار	النسبة	التكرار النسبي الصاعد
نعم	١٣	٥٤,٢	٥٤,٢
لا	١١	٤٥,٨	١٠٠
المجموع	٢٤	١٠٠	

المصدر: العمل الميداني، ٢٠١٠م

يتضح من بيانات الجدول رقم (٢) أن ٥٤,٢٪ من جملة مصانع الدراسة من ضمن مخلفاتها الصلبة راجع الصناعة، بينما ٤٥,٨٪ من مصانع الدراسة لا تتضمن مخلفاتها الصلبة راجعاً من الصناعة. وكشفت الدراسة الميدانية أن راجع الصناعة من ضمن المخلفات الصلبة الناتجة عن قطاعي الصابون والبلاستيك، أما القطاعات الأخرى فلا تتضمن مخلفاتها راجعاً من الصناعة.

جدول رقم (٣) مخلفات ورقية وحاويات كرتون

مخلفات ورقية وحاويات كرتون	التكرار	النسبة	التكرار النسبي الصاعد
نعم	١٧	٧٠,٨	٧٠,٨
لا	٧	٢٩,٢	١٠٠
المجموع	٢٤	١٠٠	

المصدر: العمل الميداني، ٢٠١٠م

ينتج عن مصانع الدرسة مخلفات ورقية وحاويات كرتون، يوضح الجدول رقم (٣) أن ٧٠,٨٪ من جملة عينة الدراسة ينتج عنها مخلفات ورقية وكرتون،

في مقابل ٢,٢٩٪ لا تشتمل مخلفاتها على نفايات ورق أو كرتون. وكشفت الدراسة الميدانية أن جميع القطاعات الفرعية لقطاع الكيماويات لديها مخلفات ورقية ماعدا قطاع البلاستيك .

شكل رقم (١) مخلفات من البلاستيك

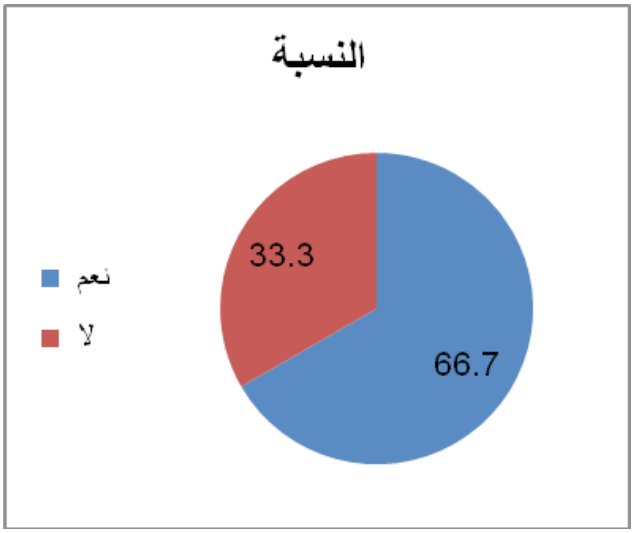

المصدر: العمل الميداني، ٢٠١٠م

كذلك من ضمن المخلفات الصلبة – الناتجة عن مصانع الدراسة – مخلفات من البلاستيك؛ يوضح الشكل رقم (١) أن نسبة ٦٦,٧٪ من عينة الدراسة تتضمن مخلفاتها الصلبة حاويات وعبوات بلاستيكية، بينما ٣٣,٣٪ منها لا تحتوي مخلفاتها على البلاستيك. وحيث كشفت الدراسة أن القطاعات التي لديها مخلفات من البلاستيك تتمثل في قطاعات البلاستيك والصابون والبوهيات.

جدول رقم (٤) مواد خام تالفة

مواد خام تالفة	التكرار	النسبة	التكرار النسبي الصاعد
نعم	١١	٤٥,٨	٤٥,٨
لا	١٣	٥٤,٢	١٠٠
المجموع	٢٤	١٠٠	

المصدر: العمل الميداني، ٢٠١٠م

تشكل المواد الخام التالفة جزءاً من المخلفات الصلبة لمصانع الدراسة؛ الجدول رقم (٤) يوضح أن ٤٥,٨٪ من مجمل عينة الدراسة تشتمل مخلفاتها الصلبة على مواد خام تالفة، في مقابل ٥٤,٢٪ منها لاتتضمن مخلفاتها مواد خام تالفة. وكشفت الدراسة الميدانية أن المواد الخام التالفة من ضمن مخلفات قطاعات الأدوية والبوهيات والكبريت.

جدول رقم (٥) منتجات تالفة

مواد خام تالفة	التكرار	النسبة	التكرار النسبي الصاعد
نعم	٩	٣٧,٥	٣٧,٥
لا	١٥	٦٢,٥	١٠٠
المجموع	٢٤	١٠٠	

المصدر: العمل الميداني، ٢٠١٠م

لا يخلو قطاع الصناعات الكيميائية بمنطقة الدراسة من المنتجات التالفة؛ الجدول رقم (٥) يوضح أن ٣٧,٥٪ من عينة الدراسة تحتوي مخلفاتها الصلبة

على منتجات تالفة، في مقابل ٥ , ٦٢٪ منها تخلو مخلفاتها من المنتجات التالفة. أوضحت الدراسة الميدانية أن المنتجات التالفة تتولد عن قطاعيي الأدوية والبوهيات.

ثانياً: خواص المخلفات الصلبة الناتجة عن مصانع الدراسة

تتباين خواص المخلفات الصلبة الناتجة عن قطاع الصناعات الكيميائية بمنطقة الدراسة تبعا للقطاع الصناعي الفرعي ومراحل العمليات الإنتاجية، ويتوقف على هذه الخواص العديد من المخاطر البيئية التي تسببها النفايات إذا لم يتم التعامل مع هذه المخلفات بشكل سليم بيئياً.

شكل رقم (٢) مخلفات صلبة سامة

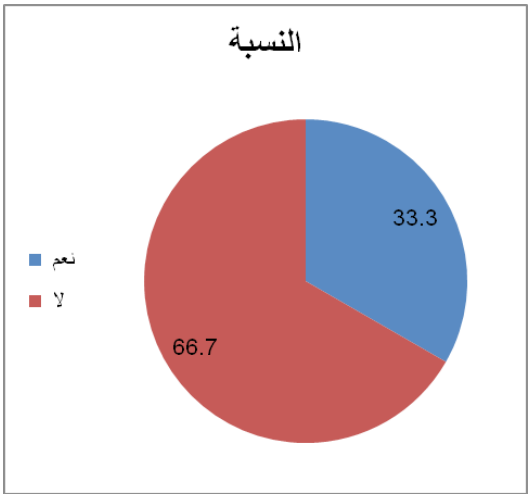

المصدر: العمل الميداني، ٢٠١٠م

تتصف بعض المخلفات الصلبة الناتجة عن عينة الدراسة بالسمية، حيث يوضح الشكل رقم (٢) أن ٣ , ٣٣٪ من جملة عينة المصانع يتولد عنها مخلفات سامة، بينما ٧ , ٦٦٪ منها لا تتصف مخلفاتها بالسمية. زكشفت الدراسة

الميدانية أن المخلفات التي تتصف بالسمية تشمل بعض مخلفات قطاعي الأدوية والكبريت.

جدول رقم (٦) مخلفات صلبة تسبب التآكل

مخلفات تسبب التآكل	التكرار	النسبة	التكرار النسبي الصاعد
نعم	٢	٨,٣	٨,٣
لا	٢٢	٩١,٧	١٠٠
المجموع	٢٤	١٠٠	

المصدر: العمل الميداني، ٢٠١٠م

فيما يتعلق بالمخلفات الصلبة ذات الخواص التآكلية، الجدول رقم (٦) يوضح أن ٨,٣٪ من جملة عينة مصانع الدراسة لديها مخلفات صلبة ذات خواص تآكلية. وقد بينت الدراسة الميدانية أن جميع قطاعات الصناعات الكيميائية لا يتولد عنها مخلفات ذات صفة تآكلية باستثناء قطاع الكبريت، وتتمثل هذه المخلفات في الفسفور الأحمر ومادة البرفين.

جدول رقم (٧) مخلفات سريعة الإشتعال

مخلفات سريعة الاشتعال	التكرار	النسبة	التكرار النسبي الصاعد
نعم	صفر	صفر	صفر
لا	٢٤	١٠٠	١٠٠
المجموع	٢٤	١٠٠	

المصدر: العمل الميداني، ٢٠١٠م

فيما يختص بالمخلفات السريعة الاشتعال، يوضح الجدول رقم (٧) أن عينة مصانع الدراسة وبنسبة ١٠٠٪ لا يتولد عنها مخلفات سريعة الاشتعال.

من العرض السابق يتضح أن المخلفات الصلبة الخطرة تتولد عن ٣٢٪ من المصانع عينة الدراسة، وتتمثل هذه النسبة في عينة قطاع الأدوية (٢٤٪) وعينة قطاع الكبريت (٨٪).

ثالثاً: معالجة المخلفات الصلبة والتخلص النهائي منها

تختلف طرق التخلص من المخلفات الصلبة الناتجة عن عينة المصانع بمنطقة الدراسة تبعاً لنوع المخلفات والقطاع الصناعي.

جدول رقم (٨) معالجة المخلفات الصلبة كيميائيا

معالجة المخلفات	التكرار	النسبة	التكرار النسبي الصاعد
نعم	٦	٢٥	٢٥
لا	١٨	٧٥	١٠٠
المجموع	٢٤	١٠٠	

المصدر: العمل الميداني، ٢٠١٠م

يوضح الجدول رقم (٨) أن ٢٥٪ من مجمل عينة المصانع تعالج بعض مخلفاتها الصناعية كيميائياً، في مقابل ٧٥٪ منها لا تعالج مخلفاتها كيميائياً قبل التخلص منها. وكشفت الدراسة الميدانية أن عينة مصانع الأدوية تعالج مخلفاتها من المواد الفعالة والأدوية كيميائياً قبل إذابتها ليتم تصريفها في شبكة الصرف الصحي، كما أوضحت الدراسة أيضاً أن عملية معالجة هذه المخلفات تتم من قبل لجنة من إدارة التصنيع الصيدلي.

شكل رقم (٣) إعادة تصنيع راجع الصناعة

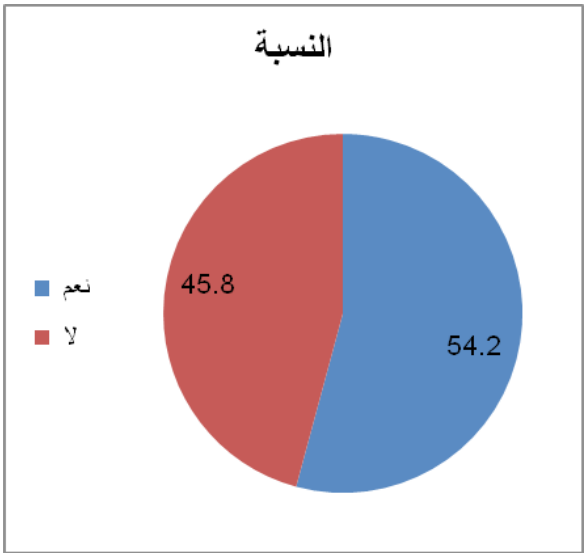

المصدر: العمل الميداني، ٢٠١٠م

من الطرق المتبعة في التخلص من المخلفات الصلبة بعينة مصانع الدراسة، إعادة تصنيع راجع الصناعة. الشكل رقم (٣) يوضح أن ٥٤,٢٪ من مجمل عينة المصانع تعيد تصنيع راجع الصناعة في مقابل ٤٥,٨٪ منها لا تعيد تصنيع مخلفاتها الصلبة. وكشفت الدراسة الميدانية أن إعادة تصنيع وتدوير المخلفات تنحصر على عينة مصانع الصابون والبلاستيك، بالإضافة إلى ذلك تعيد مصانع البلاستيك تشكيل الشعيرات البلاستيكية كحبيبات بلاستيكية يستفاد منها في صناعة بعض الأواني.

جدول رقم (٩) بيع المخلفات

معالجة المخلفات	التكرار	النسبة	التكرار النسبي الصاعد
نعم	٧	٢٩,٢	٢٩,٢
لا	١٧	٧٠,٨	١٠٠
المجموع	٢٤	١٠٠	

المصدر: العمل الميداني، ٢٠١٠م

يوضح الجدول رقم (٩) أن ٢٩,٢٪ من عينة الدراسة تتخلص من بعض مخلفاتها الصلبة عن طريق البيع، في مقابل ٧٠,٨٪ منها لا تتبع هذه الطريقة في التخلص من مخلفاتها. وكشفت الدراسة الميدانية أن طريقة التخلص من المخلفات عن طريق البيع تنحصر فقط على عينة مصانع البلاستيك، حيث تشترك هذه المصانع في بيع مخلفاتها من الجوالات البلاستيكية، بالإضافة إلى بيع حبيبات البلاستيك المعالجة للاستفادة منها في صناعة الأواني.

شكل رقم (٤) التخلص من المخلفات في مكب النفايات

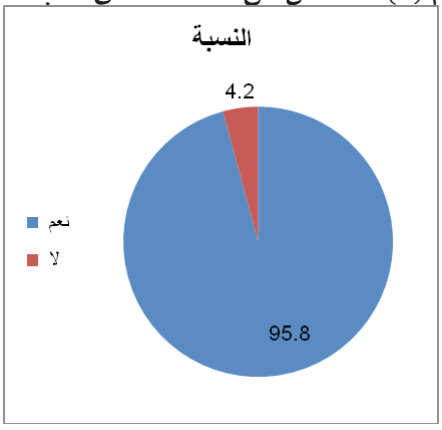

المصدر: العمل الميداني، ٢٠١٠م

من أكثر الطرق شيوعاً في التخلص من المخلفات الصلبة الناتجة عن مصانع الكيماويات، تجميعها في مكب النفايات، حيث يوضح الشكل رقم (٤) أن عدد المصانع التي تجمع مخلفاتها في مكب النفايات ٢٣ مصنعاً مثلت ما نسبته ٩٥,٨ ٪ من عينة الدراسة. وكشفت الدراسة الميدانية أن المصانع - في أغلب الأحيان - تتخلص من النفايات عشوائياً في المكب بشمال شرق المنطقة الصناعية، وفي بعض الأحيان تقوم عربة النفايات التابعة لشركة نظافة الخرطوم بنقل نفايات المصانع إلى مركز التجميع قبل النهائي – شمال شرق المنطقة الصناعية بحري – ليتم تفريغها من الشاحنات إلى مكبس يقوم بضغط النفايات وتقليص حجمها ثم تدفع إلى شاحنة أخرى وتنقل إلى منطقة جبل أبو وليدات شمال مدينة أمدرمان حيث موقع التجميع النهائي للنفايات.

إن نوعية النفايات التي يتم التخلص منها في المكب تختلف من قطاع إلى آخر؛ فقد بينت الدراسة أن عينة مصانع الأدوية والبلاستيك تتبع هذه الطريقة في التخلص من النفايات الورقية، أما عينة مصانع الصابون فتستخدمها في التخلص من النفايات البلاستيكية والورقية، كما تتبع عينة مصانع البوهيات طريقة المكب في التخلص من جميع نفاياتها المتمثلة في حاويات المواد الخام الورقية والبلاستيكية، فضلاً عن التالف من المنتجات. كذلك تتخلص عينة مصانع الكبريت من جميع نفاياتها الصلبة - والتي تشتمل على مواد خام تالفة وحاويات للمواد الخام ورقية وبلاستيكية – في مكب النفايات.

جدول رقم (١٠) حرق النفايات

معالجة المخلفات	التكرار	النسبة	التكرار النسبي الصاعد
نعم	١	٤,٢	٤,٢
لا	٢٣	٩٥,٨	١٠٠
المجموع	٢٤	١٠٠	

المصدر: العمل الميداني، ٢٠١٠م

يتضح من بيانات الجدول رقم (١٠) أن مصنعاً واحداً - يشكل ما نسبته ٤,٢٪ من جملة عينة الدراسة - يتبع طريقة الحرق في التخلص من النفايات. كشفت الدراسة الميدانية أن هذا المصانع يتخلص من نفايته الورقية والبلاستيكية عن طريق حرقها في مكب خاص داخل فناء المصنع.

رابعاً: الآثار البيئية للنفايات الصلبة الناتجة عن عينة مصانع الكيماويات

إن تأثير النفايات الصلبة – الناتجة عن مصانع الدراسة – يتوقف على الطريقة المتبعة في التخلص منها، وتوضح الدراسة هذه الآثار على النحو التالي:

١/ النفايات الصلبة التي يُتخلص منها في مكب النفايات قبل النهائي في شمال شرق المنطقة الصناعية عموماً تحوي نفايات خطرة، و٣,٣٣٪ من عينة الدراسة تلقي بنفاياتها الخطرة دون معالجة، و٨,٩٥٪ من جملة المصانع تتخلص من الحاويات الورقية والبلاستيكية الخاصة بالمواد الخام في المكب بما تحويه من بقايا مواد كيميائية تظل عالقة في الحاويات بعد تفريغها. هذا بالإضافة إلى المنتجات التالفة الناتجة عن ١٢,٥٪ من عينة الدراسة، خاصة وأن عربة

النفايات تلقي بها في المكب دون أن يكون هنالك عملية فصل للمواد الكيميائية، الأمر الذي يؤدي إلى اختلاط جميع المواد مع بعضها البعض، مما ينتج عنه الكثير من التفاعلات الكيميائية التي في الغالب تؤثر في التربة. سوف توضح الورقة أثر تراكم النفايات الصناعية في تربة المكب من خلال عرض نتائج التحليل الكيميائي لبعض خواص عينات تربة المكب ومقارنتها بخواص عينة التربة الضابطة التي تنتمي لنفس السلسلة التصنيفية وتحمل الخواص الطبيعية والكيميائية نفسها.

يوضح الجدول رقم (١١) أن أبرز التغيرات في تربة مكب النفايات تتمثل في:

أولاً: ارتفاع تركيز عنصر الصوديوم الذائب في محلول عينات تربة المكب، حيث يتراوح بين٧,١١ –١٠,٢ ملليميكافيئ/لتر، بينما يقف في محلول عينة التربة الضابطة عند ٣,٧ ملليميكافيئ/لتر. يُرد إرتفاع عنصر الصوديوم في محلول تربة المكب الى تأثرها بالنفايات الصناعية .

ثانياً: ارتفاع درجة التفاعل في مستخلص عينات تربة المكب، حيث تراوحت بين ٨,٣ – ٧,٤، بينما تقف في العينة الضابطة عند ٦,٥. تعزي الدراسة ارتفاع درجة التفاعل في عينات تربة المكب إلى ارتفاع تركيز عنصر الصوديوم الذائب في محلول تربة مكب النفايات عن ما هو عليه في عينة التربة الضابطة.

ثالثاً: ارتفاع تركيز الأملاح الذائبة في عينات تربة المكب، حيث تراوح تركيز الكلوريد الذائب بين ٩١,٤ – ٥٤,٩٠ ملليميكافيئ/لتر، في حين أنه لم يتعدَّ في العينة الضابطة ٢,٥٨ ملليميكافيئ/لتر. وتراوح تركيز البيكربونات

جدول رقم (١١) درجة التوصيل الكهربائي ودرجة التفاعل والصوديوم والأيونات الذائبة

بعينات تربة المكب والعينة الضابطة

رمز العينة	الموقع	العمق سم	التفاعل (١ :٥)	التوصيل الكهربائي ديسزميز/ متر (١-٥)	الصوديوم الذائب ملليمكافئ/لتر	الأيونات الذائبة / ملليمكافي/لتر	
						البيكربونات	الكلوريد
أ	15 °,40',"22 32 °,34',"16	0-30	8,3	7,21	11.7	4,2	91,4
ب	15 °,40'," 32 °,33'	0-30	7,4	6,31	10.2	3,8	90,54
الضابطة	15 °,38',"19 32 °,33',"15	30-0	6,5	1,23	3.7	1,91	2,58

المصدر: العمل الميداني، ٢٠١٠م

الذائبة بين ٤,٢ – ٣,٨ ملليميكافيئ/لتر، بينما لم تيجاوز تركيزها في محلول العينة الضابطة ١,٩١ ملليميكافيئ/لتر(انظر الشكل رقم ٥). إن ارتفاع تركيز الأملاح الذائبة في محلول عينات تربة مكب النفايات دلالة على تأثرها بنفايات الصناعات الكيميائية.

شكل رقم (٥) تركيز الأيونات الذائبة في محلول تربة المكب والعينة الضابطة(ملليمكافيئ/لتر)

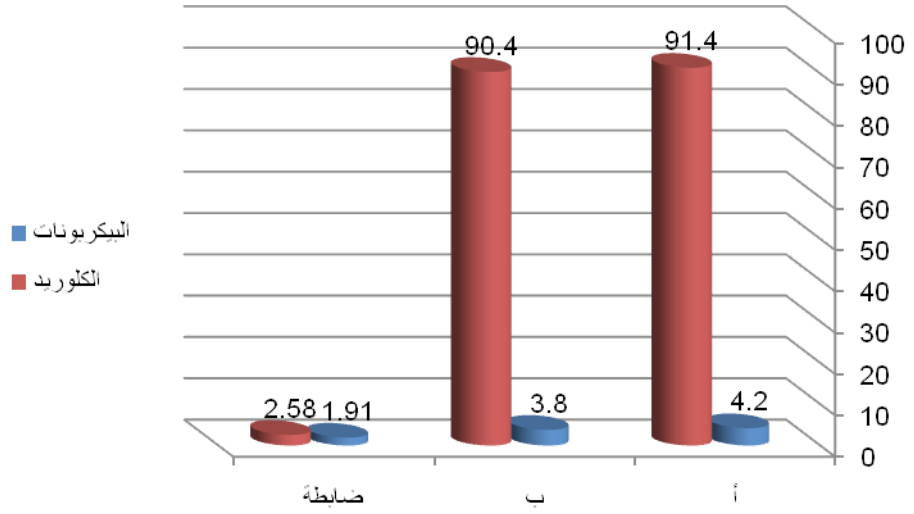

المصدر: العمل الميداني، ٢٠١٠

رابعاً: ارتفاع درجة التوصيل الكهربائي في مستخلص عينات تربة المكبيين، إذ تراوحت بين ٧,٢١ – ٦,٣١ ديسميز/متر، بينما لم تتجاوز في مستخلص العينة الضابطة ١,٢٣ ديسميز/متر(أنظر الشكل رقم ٦). تعزي الدراسة ارتفاع درجة التوصيل الكهربائي في مستخلص عينات تربة المكب عن ما هو عليه في عينة التربة الضابطة إلى ارتفاع تركيز الأملاح الذائبة في محلول

عينات تربة مكب النفايات، إذ أن ارتفاع الأملاح الذائبة في محلول التربة يترتب عليه ارتفاع درجة التوصيل الكهربائي.[٨]

شكل رقم (٦) درجة التوصيل الكهربائي في عينات تربة المكب والعينة الضابطة (ديسزميز/متر)

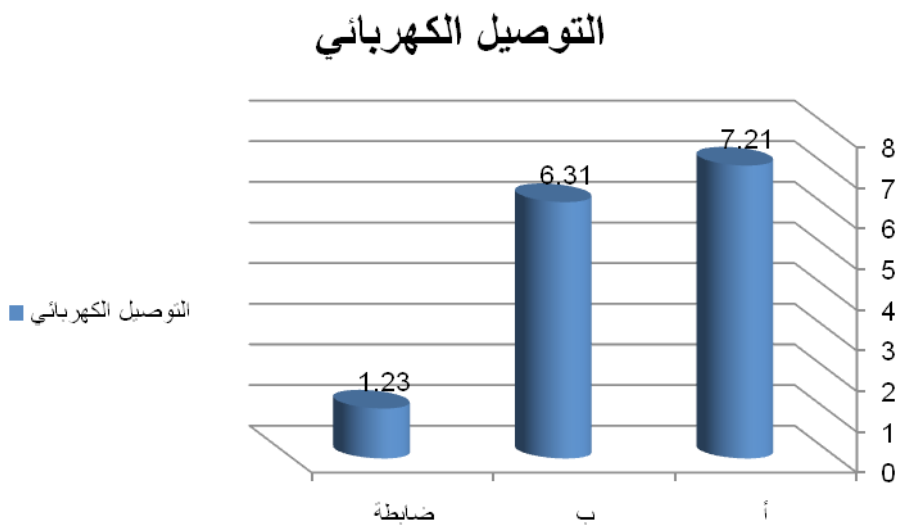

المصدر : العمل الميداني، ٢٠١٠م

٢/ إن ٢,٤٪ من عينة المصانع تتخلص من نفاياتها الورقية والبلاستيكية عن طريق الحرق العشوائي، كما أن النفايات التي تنقل إلى المكب يتم التخلص منها عن طريق الحرق العشوائي في موقع المكب النهائي بمنطقة جبل أبو وليدات، مما يؤدي إلى تصاعد الغازات والأبخرة التي تضر بالصحة، خاصة وأن حرق

(٨) عبدو المشهدي وعبد الحليم الدماطي ومحمود سامي (١٩٨٤): التجارب العلمية في أسس علم التربة، جامعة الملك سعود، الرياض، ص ١٤٥.

نفايات البلاستيك يؤدي إلى تصاعد غازات سامة كالدايوكسين الذي يتركب من ٧٥ مركب كيميائي.[٩] ترجع خطورة هذه المادة إلى أنها تدخل جسم الإنسان وتتركز في الخلايا الذهنية بصورتها السامة، وتتميز بدرجة ثبات عالية، حيث تستمر فعالة في الجسم - دون أن تتحول لمركبات أخرى غير سامة – لأكثر من عشرين عاماً. ويؤكد ذلك أن هذه المادة ما زالت موجودة حتى الآن في أجسام الجنود الفيتناميين الذين شاركوا في حرب فيتنام، لأن الجيش الأمريكي استخدم بعض المبيدات التي تحتوي على هذه المادة لإزالة الغابات أثناء الحرب على فيتنام.[١٠] وقد صنفت وكالة حماية البيئة الأمريكية مادة الدايوكسين ضمن قائمة المركبات السرطانية الأساسية، كما أن منظمة الصحة العالمية تؤكد أن الإنسان إذا تعرض لمركبات الدايوكسين بصورة مباشرة سيصاب بأمراض جلدية واختلال في وظائف الكبد.

بالإضافة إلى ذلك، فإن التخلص من نفايات صناعة منتجات البولسترين وأطباق البولسترين – بعد إكتمال دورتها – يتم عن طريق الحرق العشوائي. ويكمن خطر البولسترين في أنه يتكون من ذرة بنزين وذرة إيثلين، وعند حرق منتجات البولسترين تنفك ذرة البنزين وتصبح أحادية، كما يتصاعد كلور الهلوجين السام، مما يؤدي إلى إلحاق أضرار جسيمة بالصحة، خاصة تأثيره على العين.

(٩) عادل رفقي عوض (١٩٩٦): إدارة التلوث الصناعي – النفايات السائلة، دار الشروق للنشر والتوزيع، بيروت، ص ١٨٢.

(١٠) http; www. banana.Link.org. uk. Impact .environmental impact . htm

الخلاصة

من العرض أعلاه يتضح جلياً أن قطاع الصناعات الكيميائية بمنطقة بحري الصناعية يتخلص من بعض المخلفات الصلبة بإعادة استخدامها، كما أن بعض المخلفات يتم بيعها. كذلك تتم المعالجة الكيميائية لبعض النفايات الصلبة الخطرة قبل التخلص النهائي منها في شبكة الصرف الصحي. غير أن جل نفايات هذا القطاع يتم التخلص منها بتجميعها في مكب النفايات شمال شرق المنطقة الصتاعية دونما فرز أو معالجة للخطر منها، ويترتب على ذلك آثار سالبة على عناصر البيئة خاصة التربة. أما النفايات التي تنقل إلى المكب النهائي بجبل أبو وليدات فيتم التخلص منها عن طريق الحرق العشوائي الذي يخلِّف الكثير من الملوثات الخطرة، خاصة مركبات الدايوكسين.

التوصيات

١/ من الأهمية بمكان أن يكون هنالك مواصفة قياسية للمخلَّفات الصناعية الصلبة، فضلاً عن المخلفات الخطرة، يراعى فيها نوعية النشاط الصناعي الموجود في السودان.

٢/ التقيُّد التام بتنفيذ إتفاقية بامكو (١٩٩١م) التي توضح أنواع النفايات السامة وطريقة التخلص منها، وتتضمن الإتفاقية مكافحة مادة الدايوكسين، ومن ذلك منع حرق مخلَّفات البلاستيك.

٣/ إلزام شركة نظافة ولاية الخرطوم بإتباع الأساليب العلمية والآمنة بيئياً للتخلص من النفايات الصناعية.

٤/ من الأهمية بمكان انتهاج المصانع لأسلوب الإدارة البيئية المتكاملة القائم على الإنتاج الأنظف التي من أولوياته الحد من تولد الملوثات البيئية والاستفادة القصوى منها.

٥/ ضرورة القيام بالأبحاث العلمية لمعرفة تأثير مكب جبل أبو وليدات على عناصر البيئة، خاصة الهواء والتربة. هذا بالإضافة إلى تأثيره على صحة العاملين به.

٦/ تبصير المواطن بمخاطر منتجات البلاستيك، خاصة الأكياس الملونة، والعمل على محاربتها واستبدالها بالأكياس الورقية والمنتجات السعفية.

٧/ الاستفادة من النفايات في إنتاج الوقود الحيوي.

الفوائد الاقتصادية لتدوير مخلفات السكر بالإشارة إلى إنتاج الإيثانول في السودان

ناصر أحمد عمر محمد

مستخلص: هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على الفوائد الاقتصادية الناتجة عن تدوير مخلفات السكر لإنتاج وقود الايثانول في السودان. يستخدم الباحث الطرق الحديثة لتقدير نموذج الربح عن طريق برنامج (E-views) للحصول على النتائج التي تدعم النظرية الاقتصادية. يعتمد البحث على مصادر ثانوية، منها سجلات شركة سكر كنانة. وكان من أهم نتائج الدراسة، إمكانية الاستفادة من مخلفات السكر (المولاص) في إنتاج الإيثانول لتحقق قيمة مضافة للمولاص؛ وقد أثبتت جدواها الاقتصادية والبيئية في جميع البلاد التي تمارسها. يوصي البحث بتعميم فكرة تدوير المولاص على كل مصانع السكر في السودان.

Abstract: This study aims at investigating the economical benefits resulting from the recycling of sugar wastes in the Sudan. The researcher uses the modern means of estimating profits model through E-views to attai8n the results that support the economical theory. The research relies on secondary sources, including the records of Kenana Sugar Company. The most important result of the study is the possibility of making use of the sugar waste (molasses) in ethanol production in order to achieve additional value to the molasses; its economical and environmental feasibility in all countries that practice it. The study recommends generalization of the concept of molasses recycling to all sugar factories in the Sudan.

كلمات مفتاحية: تدوير المخلفات الصناعية ، الإيثانول، شركة سكر كنانة

مقدمة

في العقود الأخيرة من القرن العشرين بدأت الدول الصناعية الاستفادة من المخلفات الصناعية كمواد خام لصناعات أخرى محققة بذلك فوائد اقتصادية وبيئية كبيرة، الأمر الذي جعل معظم الدول تتوجه نحو إعادة التصنيع.[1] وقد دخل السودان حديثاً ضمن قائمة الدول التي استفادت من تدوير المخلفات

(١) دينس أوين (١٩٩١): البيئة وقضاياها، مركز النشر، جامعة القاهرة، ص ٣.

الصناعية، وذلك عند إنشاء مصنع للحديد والصلب بجياد، ومؤخراً مصنع الإيثانول بكنانة من خلال إعادة تصنيع المولاص. وقد توجه السودان نحو إنتاج الإيثانول من مخلفات السكر نظراً لما يتمتع به من إمكانيات في مجال صناعة الوقود الأخضر، إلى جانب توفر الظروف الطبيعية الملائمة لإنتاجه. ولا شك أن هذا يساعد على نمو قطاع صناعة السكر في السودان ويؤدي لزيادة القيمة المضافة للمنتج والتي تدر للبلاد عملات صعبة تساعد على خفض عجز الميزان التجاري من خلال زيادة القيمة المضافة لمخلفات السكر بدلاً عن تصديرها خاماً. وتلعب الصناعات التحولية دوراً مقدراً في تحقيق قيمة مضافة للقطاعات المختلفة وتوفير فرص للعمل وزيادة القدرة التنافسية للمنتجات الوطنية، وقد ارتفعت نسبة مساهمتها في الناتج المحلي الإجمالي ارتفاعاً طفيفاً من ١٧,٤ في عام ٢٠١٥ إلى ١٧,٥ في عام ٢٠١٦. ومن أهم الصناعات التحولية، صناعات السكر والتي تتكون من مصانع إنتاج السكر الأربعة المملوكة لشركة السكر السودانية (حجر عسلاية، الجنيد، سنار، حلفا الجديدة) وشركة سكر كنانة وشركة النيل الأبيض.[٢]

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق ما يلي:

١- معرفة الفوائد الاقتصادية عند تدوير مخلفات السكر (المولاص) لإنتاج الايثانول في السودان.

٢- إدخال مفهوم الصناعات المتكاملة بمصانع السكر في السودان.

(٢) التقرير السنوي الخامس والخمسون للعام ٢٠١٥ – بنك السودان.

سياسات واستراتجيات التصنيع في الدول النامية

ترتكز الدول النامية في سياستها نحو التصنيع على سياسة إحلال الواردات وتنمية الصادرات. فسياسة إحلال الواردات ظهرت في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي من أجل تحقيق التنمية الصناعية خلال التغيرات الهيكلية في البنية الاستثمارية الملائمة لتشجيع القطاع الخاص على الاستثمار، بالإضافة إلى أهمية الاستقرار السياسي. إلا أن الدول النامية اعتمدت لتمويل برامجها وخططها للتصنيع والتنمية خلال سياسة إحلال الواردات على الموارد الأجنبية بدرجة كبيرة والتي أثرت على اقتصادياتها بسبب عدم وجود سياسة واضحة وسليمة للاقتراض من الخارج لدى الكثير من هذه الدول، والأكثر من ذلك عدم وجود سياسة استثمارية رشيدة لهذه القروض الأجنبية، وبل أن الشطر الأكبر من هذه القروض تذهب إلى السلع الاستهلاكية والغذائية. والمدخل الطبيعي لسياسة التصنيع والتنمية يتمثل في الاستخدام الكامل والرشيد للإمكانيات المادية والمالية والبشرية المتاحة والممكنة في البلدان النامية. ومن جانب آخر فالدول النامية لابد أن تضع في الاعتبار توسيع نطاق السوق المحلي من خلال إنجاح عمليات وإجراءات إعادة توزيع الدخل القومي لصالح الطبقات العاملة والفقيرة، مما يصاحب ذلك من خلق طلب على المنتجات الصناعية الجديدة التي تهتم أساساً بتوفير الاحتياجات الأساسية للمعيشة.[٢] وتمر إستراتجية التصنيع التي ترتكز على إحلال الواردات بثلاث مراحل، تبدأ المرحلة الأولى بتوفير البنية الاستثمارية الملائمة لتشجيع القطاع الخاص على الاستثمار بالإضافة إلى أهمية الصناعات الناشئة من خلال فرض الرسوم الجمركية على الواردات من السلع الأجنبية المنافسة لها، أو اتباع نظام الحصص لتحديد

(٢) سليم كامل درويش (١٩٨٥): الاقتصاد الصناعي- الطبعة الأولى- بيروت، ص ١٣٥- ١٣٩.

الكميات المسموح باستيرادها لتتمكن الصناعات الناشئة من تسويق منتجاتها في السوق المحلية، وتتميز هذه المرحلة بالتركيز على إقامة الصناعات الاستهلاكية. أما المرحلة الثانية تهتم بإنتاج السلع الاستهلاكية المعمرة مثل الأدوات الكهربائية مثل الثلاجات وغيرها، والمرحلة الأخيرة هي بناء قاعدة هندسية متمثلة في إقامة صناعات الحديد والصلب والصناعات الإنتاجية مثل الآلات والمعدات الزراعية والصناعية ووسائل النقل مثل السيارات. وبالرغم من ذلك هناك بعض من الانتقادات وجهت إلى إستراتجية إحلال الواردات، منها: اعتمدت بصورة أساسية على تكنولوجيا مستوردة متقدمة نسبياً لا تستوعب أعداداً كبيرة من العاملين، وأيضاً اعتمادها على الأسواق ذات الحجم الكبير والتي لا تتوفر في الدول النامية، بالإضافة إلى أنها تحتاج إلى رأس مال كبير من المصادر الخارجية للتمويل نظراً لافتقار هذه الاقتصاديات إلى المدخرات المحلية وبذلك عجزت الدول النامية عن سداد أعباء الديون الخارجية. كل هذه الانتقادات الموجهة لإستراتجية إحلال الواردات حولت الدول المطبقة لها للبحث عن استراتجيات جديدة لتقود عملية التنمية الصناعية فتبنت إستراتيجية تنمية الصادرات والتي تعنى التصنيع من أجل الصادر. وتمتاز إستراتيجية التصنيع الموجه إلى التصدير بأنها تكمل الإستراتجية الأولى (التصدير من أجل إحلال الواردات) وهذا يعني إمكانية التغلب على مشكلة صغر السوق المحلية في الدول النامية، وأيضاً تعتمد على تقديم منتجات ذات جودة عالية وقدرة تنافسية بعد التصنيع لأن معظم الدول النامية تعتمد في صادراتها على السلع الأولية التي تشكل حوالي ٧٠٪ من إيرادات التصدير. وقد اتسمت صادراتها بالنمو البطيء بالمقارنة مع معدلات نمو التجارة العالمية، وتحقق هذه الإستراتيجية وفورات كبيرة الحجم تسمح بزيادة موارد الدولة من العملات الأجنبية، وبالتالي

تحسن في الميزان التجاري. ومن الدول النامية ذات التجارب في سياسة تنمية الصادرات دول شرق آسيا (دول النمور الآسيوية).[٤]

الفوائد الاقتصادية لمخلفات السكر لبعض الدول

أولاً: تجربة شركة السكر والصناعات التكاملية بمصر في مجال تدوير مخلفات السكر

لقد كانت مخلفات صناعة السكر في الماضي عبئاً ثقيلاً على المنتجين لصعوبة التخلص منها، خاصة بعد التطور وزيادة طاقة المصنع، وبالتالي زيادة كميات مخلفات الصناعة من البجاس والمولاص. ولقد كان لصناعة السكر المصرية السبق في حسن استغلال مخلفات السكر في الصناعات مثل البجاس، وهي المادة المتخلفة بعد عصر عيدان القصب واستخلاص السكر الأبيض من خلال العمليات الصناعية المختلفة. وتصل كمية البجاس ما بين ٣٣٪ -٣٤٪ من كمية القصب المعصور، وكانت الطريقة الأساسية والتقليدية للاستفادة منه، عن طريق استخدامه كوقود بواسطة المراجل في إنتاج البخار اللازم لتوليد الطاقة المستخدمة في العمليات الصناعية، وما يزيد يمثل مشكلة بيئية وزيادة تكلفة للتخلص منه. وقد تم استخدام البجاس في كثير من الصناعات كإنتاج الخشب الحبيبي في مصنع أقيم بجوار من مصنع سكر كوم أمبو (محافظة أسوان)، وكانت الطاقة الإنتاجية لهذا المصنع في بداية تشغيله ١٥ ألف طن، وقد تم تطوير الإنتاج إلى ٢٠ ألف طن. ومن ضمن المصانع القائمة على البجاس، صناعة لب الورق منذ عام ١٩٦٥ بطاقة إنتاجية بلغت حوالي ٦٠ ألف طن من اللب في اليوم، وكان يتم بيع الإنتاج بالكامل لشركات تصنيع الورق

(٤) عبدالوهاب الأمين (٢٠٠٩): التنمية الاقتصادية، الطبعة الأولى، الرياض، ص ٢١٥.

بمصر. وفى عام ١٩٩٥ تم تطوير المصنع بسبب زيادة استهلاك الورق بطاقة إنتاجية بحوالي ٦٠ ألف طن من ورق كتابة وطباعة سنوياً، بجانب إنتاج ١٠ ألف طن من اللب يومياً. وأيضاً من مخلفات السكر، المولاص، وهو المتخلف عن صناعة السكر تم استغلاله في إنتاج مواد مهمة وضرورية في صناعة التقطير والتخمير للاستفادة منه في صناعة الكحول الإيثلي الذي يستخدم في الأغراض الطبية، وفي صناعة العطور، وحامض الخليك والذي يستخدم في الصناعات الكيماوية وصناعة الغزل والنسيج، وفي الأغراض الغذائية.[٥]

جدول رقم (١) إنتاج شركة السكر والصناعات التكاملية المصرية من المولاص

الموسم	مولاص الطن
2001-2002	421274
2002-2003	397447
2003-2004	393828
2004-2005	404238
2005-2006	394388
2006-2007	415272
2007-2008	425945
2008-2009	375646
2009-2010	372033
2010-2011	396753
2011-2012	376019

المصدر: بيانات شركة السكر والصناعات التكاملية المصرية

(٥) محمود داؤود (٢٠٠١): كيفية الاستفادة من إعادة تدوير مخلفات صناعة السكر بشركة السكر والصناعات التكاملية، القاهرة، ٢٠٠١/٣/١، ص ١٨.

شكل رقم (١) يوضح إنتاج المولاص بشركة السكر والصناعات التكاملية

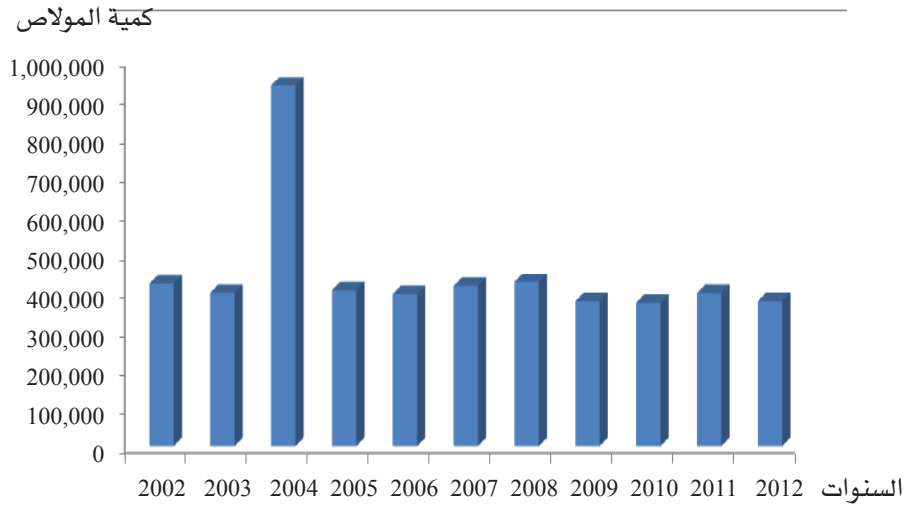

ثانيا: تجربة البرازيل في إنتاج الإيثانول

يعتبر إنتاج الإيثانول من المخلفات الصناعية من أهم ما توصل إليه عالم اليوم في مجال تدوير المخلفات الصناعية. فقد عرف أن البرازيل تعتمد في استخراج الإيثانول على قصب السكر الذي تمتد حقوله مئات الأميال في أكبر دولة بأمريكا الجنوبية. وبعد أن أصبحت السيارات التي تعمل بالوقود الإحيائي تشكّل ثلثي حجم مبيعات السيارات الجديدة في البرازيل هذا العام تستعد البرازيل لتصدير تقنية الوقود البديل إلى مختلف دول العالم كوسيلة لمواجهة ارتفاع أسعار البترول. وفي عام ٢٠٠٣ طرحت شركة فولكس فاجن في البرازيل أول سيارة تسمى "سيارة الوقود المرن" تعمل بالبنزين الخالي من الرصاص وبالوقود الكحولي أي الإيثانول. ومنذ ذلك الحين استمر الطلب على سيارات الوقود المرن. ويتوقع خبراء أن يرتفع استهلاك الإيثانول إلى ٨٠ مليار لتر بحلول

عام ٢٠١٠ في سبع بلدان رئيسية، هي: الولايات المتحدة والبرازيل والاتحاد الأوروبي واليابان والصين والهند وتايلاند.

وقد أعلنت الصين- ثالث أكبر منتج للإيثانول في العالم - أنها ستنتقل إلى مواد خام من غير الحبوب، مثل الكشاف لصناعة إيثانول. وأكد باحثون أن "الطحالب" ربما كانت الحل لمشكلة الطاقة في كثير من الدول؛ فالطحالب تنتج الزيوت بطبيعة الحال، لذا فإذا أمكن إعدادها وراثياً، فستنتج الزيت الحيوي الخام الذي يساوي البترول في استخداماته والذي يمكن أن يصفى ثم ينتج منه الجازولين وزيت الديزل وبعض المواد الأولية لصناعة البلاستيك، بل والأدوية أيضاً. كما أكدوا إمكانية استخلاص الإيثانول أيضاً من هذه الطحالب، بالإضافة إلى ضرورة الاهتمام بمصادر الطاقة الأخرى مثل الطاقة الشمسية وطاقة الرياح. وتعتبر الولايات المتحدة الآن أكبر منتج ومستهلك للإيثانول متقدمة على البرازيل، بحيث تستهلك ٢٨ مليار لتر في العام، ويستهلك الاتحاد الأوربي حوالي ١٣ مليار لتر.

أهمية الإيثانول

الإيثانول هو وقود حيوي متجدد يعتمد إنتاجه على مدخلات نباتية مثل قصب السكر، والكسافا، والبطاطس، والقمح، والبنجر، والذرة، وغيرها، ويتميز بأن ليس له أي تأثير سلبي على البيئة عند احتراقه؛ فهو صديق للبيئة. وقد زادت أهمية الإيثانول عند ارتفاع أسعار النفط في سبعينات القرن الماضي، حيث أصبح ضمن منظومة الطاقة. ففي معظم الصناعات القائمة على إنتاج السكر يعتبر الإيثانول مصدراً أساسياً إن لم يكن موازياً للعائدات المالية. ومن المتوقع أن يرتفع عدد العربات المستهلكة من وقود الإيثانول حوالي ١٧ مليون مركبة في العالم بحلول عام ٢٠٢٠، مما سيزيد من استهلاك الإيثانول وبالتالي ارتفاع

أسعاره. وتحدد إنتاج الإيثانول على أساس قاعدة نسبة خلطه مع البنزين بنسبة ٥٪ إلى ١٠٪، وكلما ارتفعت النسبة زادت من استهلاك وقود الإيثانول.

الفوائد الاقتصادية التي حققها مصنع سكر كنانة عند تدوير المولاص لإنتاج الإيثانول

يقع مشروع سكر كنانة في ولاية النيل الأبيض على الضفة الشرقية للنيل الأبيض على بعد ٣٢٠ كلم من العاصمة القومية. أنشئت شركة سكر كنانة المحدودة عام ١٩٧٥ كمشروع متكامل من الناحية الزراعية والصناعية. فقامت كنانة بعد إجراء دراسات عديدة تتعلق بالتربة ومدى صلاحيتها لزراعة محصول قصب السكر، وملاءمة الطقس، وتوافر نسب معقولة من الأمطار، ودراسة كل الظروف التي تمكن من نجاح المشروع. كانت اجتهادات الحكومة السودانية واستقطابها لعدد من الشركاء العرب والاستفادة من فائض أموال الدول العربية المصدرة للنفط في إنشاء مشروع استثماري يعود بالخبرة والفائدة وتأمين سلعة إستراتيجية للمنطقة العربية، فكانت مشاركة دولة الكويت والمملكة العربية السعودية، والشركة العربية للاستثمار، ومؤسسة التنمية السودانية، والهيئة العربية للاستثمار والإنماء الزراعي، ومجموعة البنوك التجارية السودانية. وكانت ثمرة هذا الاتفاق إنشاء شركة سكر كنانة وبدأت عمليات تأسيسها في العام ١٩٧٢، وتم توقيع الاتفاقية في فبراير ١٩٧٥. وتبلغ مساحة المشروع ٣٥,٧٠٠ هكتاراً، وتبلغ طاقة المصنع الإنتاجية ٣٦٠ ألف طن من السكر الأبيض وبطاقة شحن يومية تبلغ ٢٦ ألف طن من القصب يومياً. وتتم زراعة القصب في أراضٍ زراعية محيطة بالشركة، مما يقلل من تكلفة نقله للمصنع.[٦]

(٦) محمد موسى عثمان (١٩٩٦): المواد الاقتصادية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ص ١٥٥-١٦٢.

ومن أهم الفوائد الاقتصادية لمخلفات السكر بمصنع سكر كنانة، إنشاء مصنع للإيثانول، حيث أجريت أول دراسة لقيام المشروع في مطلع الثمانيات بواسطة شركة (ABA) الأمريكية. وفي ٢٣ يناير ٢٠٠٧ تم عقد الورشة الدولية لصناعة الإيثانول في قاعة الصداقة الخرطوم تحت شعار"وقود الإيثانول حدود جديدة للطاقة" بحضور وزراء الصناعة والطاقة والجهات الحكومية المختصة، وجهات عالمية مثل منظمة السكر العالمية. وقد أوصت الورشة في قرارها الختامي بضرورة أن تبادر كنانة إلى إنشاء مصنع للإيثانول. وقد تم افتتاح المصنع في أبريل ٢٠٠٩، وصممته وصنعت معداته شركة "ديدينى" البرازيلية المتخصصة في صنع آليات مصانع السكر والكحول. وفي ديسمبر ٢٠٠٩ أبحرت أول شحنة من الإيثانول السوداني إلى ميناء روتردام في هولندا التي تحمل حوالي خمسة ملايين لتراً منه إلى الاتحاد الأوربي بسعر ٤٥٠ يورو للمتر المكعب، علماً بأن إنتاج مصانع الإيثانول في العام يقدر بحوالي ٦٥ مليون لتراً. وتدعم الدولة السودانية صناعة الإيثانول عبر العديد من القرارات والتشريعات، منها تبني وزارتي الصناعة والطاقة سن تشريع يسمح بمزج الوقود الحيوي مع البنزين بنسبة ٥٪ كحد أدنى، واستعماله بنسبة ١٠٠٪ للسيارات ذات المحرك المزدوج، وإعفاء صناعة الإيثانول خلال المرحلة الأولى من الضرائب والرسوم كافة، إضافة إلى تشجيع استيراد السيارات التي تستخدم الوقود الحيوي عبر تخفيض رسوم الترخيص.(٧)

(٧) www.kenana.com

جدول رقم (٢) يوضح الإيرادات المتحققة من مبيعات المولاص

قبل إنشاء مصنع الإيثانول

السنة	الكمية المباعة (طن)	صافى الدخل المتحقق (دولار أمريكي بعد خصم التكلفة)
2002	121.090	6.455.235
2003	128.780	5.825.491
2004	994	4.790.457
2005	98.00944	7.431.183
2006	143.776	11.511.991
الجملة	597.649	36.014.357

المصدر : سجلات مصنع سكر كنانه

شكل رقم (٢) يوضح صافي الدخل المتحقق من مبيعات المولاص بملايين الدولارات الأمريكية

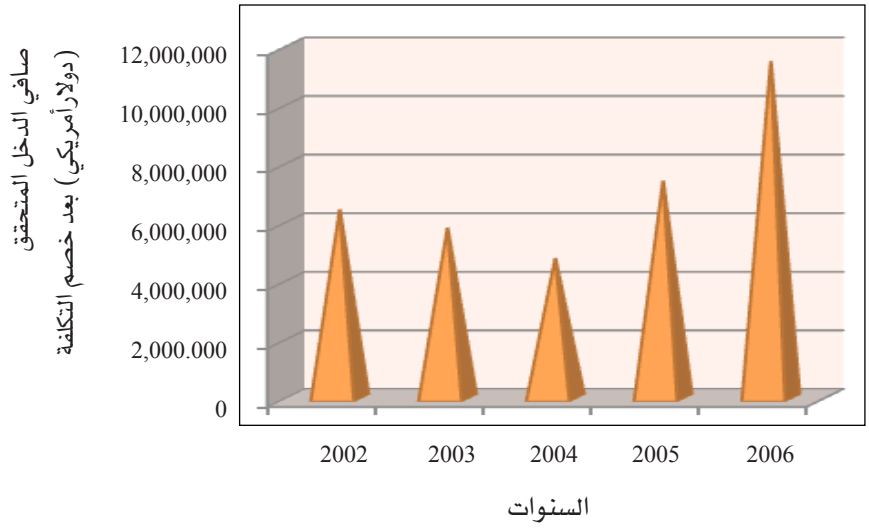

جدول رقم (٣) الإيرادات المتحققة من مبيعات الإيثانول
منذ بداية التشغيل التجاري للمصنع في يونيو ٢٠٠٩

الموسم	إنتاج الإيثانول/ لتر	التكلفة دولار	الإيرادات بالدولار	صافي الأرباح بالدولار
2010/2009	45.629.140	5.902.721	22.962.836	17.060.114
2011/2010	36.178.333	8.333.981	22.708.432	14.374.451
2012/2011	32.755.171	18.697.241	29.405.179	10.707.937
2013/2012	47.079.280	12.420.698	29.022.049	16.601.350
2014/2013	38.584.376	12.369.950	19.533.832	7.163.881
2015/2014	25.198.840	8.788.322	12.210.446	3.422.123
الإجمالي	225.425.140	66.512.915	135.842.774	69.329.858

المصدر: سجلات مصنع سكر كنانة

من البيانات أعلاه يمكن تقدير نموذج الربح عن طريق برنامج (Eviews) للحصول على النتائج التي تدعم النظرية الاقتصادية؛ فمتغيرات الاقتصاد تؤثر وتتأثر بعضها البعض في إطار متكامل للعلاقات فيما بينهما، وهذه العلاقات عادة ما تشتمل على متغيرات تفسيرية ترتبط بمتغيرات تابعة من خلال معلمات مجهولة يرغب الباحث تقديرها في ظل وجود الأخطاء العشوائية. وكما هو معروف في أدبيات الاقتصاد القياسي، أن أحد مكونات الأخطاء العشوائية ناتج عن أخطاء في هذه المتغيرات، وبما أن دقة التقديرات تعتمد بشكل أساسي على حجم وطبيعة هذه الأخطاء، لذلك لابد من تحسين متغيرات النموذج، وذلك عن طريق التحليل الأولي للبيانات، وخاصة في بيانات السلاسل الزمنية، إذ أن معظم الدراسات القياسية تعتمد عليها. لذلك فإن التحليل الأول للبيانات يشمل اختبار سكون واستقرار السلسلة وتحليل التكامل المشترك.

أولاً: اختبار الاستقرار

فيما يلي نتائج التطبيق العملي لاختبار الاستقرار من عدمه بالتطبيق على بيانات الدراسة (الربح R والإيرادات TR والتكلفة TA وإنتاج الإيثانول ET) في الفترة من ٢٠٠٩-٢٠١٥.

١- اختبار ديكي فولر الموسع (Augmented Dickey–Fuller 1981)

الجدول رقم (٤) يوضح نتائج اختبار ديكي فولر لمتغيرات الدراسة (الربح R والإيرادات TR والتكلفة TA وإنتاج الإيثانول ET)

المتغيرات	قيمة ADF	القيمة الحرجة عند مستوى معنوية٥٪	مستوى الاستقرار
الربح	-3.813578	-3.519595	عند المستوى
الإيرادات	-3.976962	-3.694851	عند الفرق الأول
إنتاج الإيثانول	-3.703251	-3.694851	عند الفرق الثاني
التكلفة	-3.907656	-3.694851	عند الفرق الأول

المصدر: إعداد الباحث من بيانات الدراسة باستخدام برنامج Eviews.v9

يتضح من الجدول أعلاه أن قيمة (ADF) بالنسبة للربح R أكبر من القيمة الحرجة عند مستوى معنوية ٥٪، وهذا يعني أن الربح R مستقر في المستوى. كما أن قيمة (ADF) للإيرادات أكبر من القيمة الحرجة عند مستوى معنوية ٥٪، ويعني ذلك أن الإيرادات مستقرة في الفرق الأول. ويلاحظ أن قيمة (ADF) لمتغير إنتاج الإيثانول أكبر من القيمة الحرجة عند مستوى معنوية ٥٪، وهذا يعني أن متغير إنتاج الإيثانول مستقر في الفرق الثاني. ويلاحظ أن قيمة (ADF)

لمتغير التكلفة أكبر من القيمة الحرجة عند مستوى معنوية ٥٪، وهذا يعني أن متغير التكلفة مستقر في الفرق الأول.

٢- اختبار فيلبس - بيرون (pp.)

الجدول رقم (٥) يوضح نتائج اختبار فيلبس بيرون لمتغيرات الدراسة (الربح R والإيرادات TR والتكلفة TA وإنتاج الإيثانول ET)

المتغيرات	قيمة pp	القيمة الحرجة عند مستوى معنوية ٥٪	مستوى الاستقرار
الربح	-3.933203	-3.519595	عند المستوي
الإيرادات	-3.711884	-3.519595	عند الفرق الأول
إنتاج الإيثانول	-3.703251	-3.694851	عند الفرق الثاني
التكلفة	-3.762669	-3.519595	عند الفرق الأول

المصدر: إعداد الباحث من بيانات الدراسة باستخدام برنامج Eviews.v9

يتضح من الجدول أعلاه أن قيمة (pp) بالنسبة للربحR أكبر من القيمة الحرجة عند مستوى معنوية ٥٪، وهذا يعني أن الربح R مستقر في المستوى. كما أن قيمة (pp) للإيرادات أكبر من القيمة الحرجة عند مستوى معنوية ٥٪، ويعني ذلك أن الإيرادات مستقرة في الفرق الأول. ويلاحظ أن قيمة (pp) لمتغير إنتاج الإيثانول أكبر من القيمة الحرجة عند مستوى معنوية ٥٪، وهذا يعني أن متغير إنتاج الإيثانول مستقر في الفرق الثاني. ويلاحظ أن قيمة (pp) لمتغير التكلفة أكبر من القيمة الحرجة عند مستوى معنوية ٥٪، وهذا يعني أن متغير التكلفة مستقر في الفرق الأول. (يعني هذا أن البيانات مستقرة وقابلة للتحليل من أجل الوصول إلى النتائج من خلال تقدير نموذج الانحدار المتعدد).

ثالثاً: تقدير النموذج

جدول رقم (٦) يوضح نتائج تقدير معادلة الربح

باستخدام نموذج الانحدار الخطي المتعدد

المتغيرات Variable	المعالم المقدرة Coefficient	الأخطاء المعيارية	قيمة (T) T-Statistic	معنوية المعالم Prob	المعنوية الكلية للنموذج F	Adjusted R-Square
C	2.860065	1.324612	2.159172	0.000	0.0000	0.708
Log(TR)	0.374626	0.190954	1.961869	0.000		
Log(ET)	1.175073	0.577832	2.033601	0.000		
Log(TA)	2.138707-	0.715260	2.990112 -	0.000		

المصدر: إعداد الباحث من بيانات الدراسة باستخدام برنامج Eviews.v9

معادلة الربح

تقييم نتائج تقدير نموذج الدراسة باستخدام المعيار الاقتصادي والإحصائي والقياسي

أولاً التقييم وفقاً للمعيار الاقتصادي

من الجدول رقم (٤) يتضح الآتي:

- قيمة الثابت تساوي (٢,٨٦) وهي معامل الربح، وهي قيمة موجبة أي تتفق مع معيار النظرية الاقتصادية، وتعني أن الربح يساوي ٢,٨٦ جنيهاً عندما يكون الإيراد وكمية الإيثانول والتكلفة ثابتة.

- قيمة معامل الإيرادات تساوي (٠,٣٧) قرشاً، وهي ذات إشارة موجبة وتعني وجود علاقة طردية بين الإيرادات والربح، أي كلما زادت الإيرادات بوحدة واحدة سيزيد الربح بـ٠,٣٧ قرشاً، وهذا يتفق مع النظرية الاقتصادية.

- قيمة معامل إنتاج الإيثانول (١,٤)، وهي قيمة موجبة وتعني وجود علاقة طردية بين إنتاج الإيثانول والربح، أيّ أن الزيادة في إنتاج الإيثانول بوحدة واحدة تؤدي إلى زيادة الربح بـ ١,٤ جنيهاً، وهذا يتفق مع معيار النظرية الاقتصادية.

- قيمة معامل التكلفة (٢,١٤-) جنيه، وهي ذات إشارة سالبة وتعني وجود علاقة عكسية بين التكلفة والربح، أيّ كلما زادت التكلفة بوحدة واحدة سينخفض الربح بـ٢,١٤- جنيهاً، وهذا يتفق مع النظرية الاقتصادية.

ثانياً التقييم وفقاً للمعيار الإحصائي

وفي هذا المعيار يتم تقييم ثلاث نقاط وهي:

١-اختبار المعنوية الجزئية للمعالم

من جدول رقم (٤) يتضح الآتي:

- القيمة الاحتمالية للثابت تساوي (٠,٠٠٠)، وهي أقل من مستوى المعنوية ٥٪، وهذا يعني أن الثابت معنوي.

- القيمة الاحتمالية لمعامل الإيرادات تساوي (٠,٠٠٠)، وهي أقل من مستوى المعنوية ٥٪، وهذه دلالة على معنوية الإيرادات.

- القيمة الاحتمالية لمعامل إنتاج الإيثانول تساوي (٠,٠٠٠)، وهو أقل من مستوى المعنوية ٥٪، وهذا يعني أن معامل الإيثانول معنوي.

- القيمة الاحتمالية لمعامل التكلفة تساوي (٠,٠٠٠)، وهو أقل من مستوى المعنوية ٥٪، وهذا يعني أن معامل التكلفة معنوي.

٢- المعنوية الكلية للنموذج (F)

يلاحظ من الجدول رقم (٤) أن قيمة F تساوي (٢,٤٢٩١١٤)، والقيمة الاحتمالية لـ F تساوي (٠,٠٠٠)، وهي أقل من مستوى المعنوية ٥٪، وهذا يعني أن النموذج ككل معنوي.

٣- اختبار جودة التوفيق (Adjusted R-Squared)

يلاحظ من الجدول رقم (٤) أن قيمة معامل التحديد تساوي ٠,٧١، وهذا يعني أن المتغيرات المستقلة (الإيرادات TR والتكلفة TA وإنتاج الإيثانول ET) مسئولة عن ٧١٪ من التغيرات التي تحدث في المتغير التابع (الربح)، والباقي ٢٩٪ يرجع إلى المتغيرات غير المضمنة في النموذج، وهذه دلالة على جودة توفيق النموذج.

ثالثاً: التقييم وفقاً للمعيار القياسي

من خلال هذا المعيار يمكن معرفة ما إذا كان النموذج يخلو من مشاكل القياس أم لا، وينقسم إلى ثلاثة أنواع على النحو التالي:

١- اختبار مشكلة اختلاف التباين Heteroskedasticity Test:

جدول رقم (٧) يوضح نتائج اختبار ARCH

F-statistic	0.400702	Prob. F(1,23)	0.5611
Obs*R-squared	0.546324	Prob. Chi-Square(1)	0.4598

المصدر: إعداد الباحث من بيانات الدراسة باستخدام برنامج Eviews-v9.

من خلال نتائج الجدول أعلاه نجد أن القيم الاحتمالية المصاحبة لاختباري F وChi-Square أكبر من ٥٪، وهذا دلالة على أن النموذج لا يعاني من مشكلة اختلاف التباين.

٢- اختبار مشكلة الارتباط الذاتي

جدول رقم (٨) يوضح نتيجة اختبار Durbin-Watson

Durbin-Watson Statistics =1.991

المصدر: إعداد الباحث من بيانات الدراسة باستخدام برنامج Eviews-v٩.

يلاحظ من الجدول أعلاه أن قيمة DW تساوي (١,٩٩)، وهي قريبة جداً من القيمة المعيارية ٢، وهذه دلالة على عدم وجود مشكلة الارتباط الذاتي في النموذج.

٣- اختبار مشكلة الارتباط الخطي المتعدد Multicollinearity

جدول رقم (٩) يوضح نتيجة اختبار مصفوفة الارتباط Correlation Matrix

	TR	TA	R	ET
TR	1.000	0.52	0.79	0.69
TA	0.52	1.000	0.10	0.10
R	0.79	0.10	1.000	0.77
ET	0.69	0.10	0.77	1.000

المصدر: إعداد الباحث من بيانات الدراسة باستخدام برنامج Eviews-v9.

يلاحظ من الجدول أعلاه أن قيمة الارتباط بين المتغيرات أقل من ٨٠٪، وهذا يعني عدم وجود مشكلة الارتباط الخطي المتعدد في النموذج.

اختبار مقدرة النموذج على التنبؤ:

لاختبار مقدرة النموذج على التنبؤ نستخدم اختبار معامل عدم التساوي لثِيل (Thiel)

جدول رقم (١٠) يوضح نتائج اختبار مقدرة النموذج على التنبؤ

الاختبار	قيمة الاختبار
Thiel Inequality Coefficient	0.000633

المصدر: إعداد الباحث من بيانات الدراسة باستخدام برنامج Eviews-v9.

من خلال نتائج الجدول أعلاه نجد أن قيمة معامل عدم التساوي لثايل تساوي (٠,٠٠٠٦٣٣)، وهي قريبة من الصفر، مما يشير إلى المقدرة العالية للنموذج على التنبؤ.

شكل رقم (٣) يوضح إنتاج الإيثانول بمصنع سكر كنانة

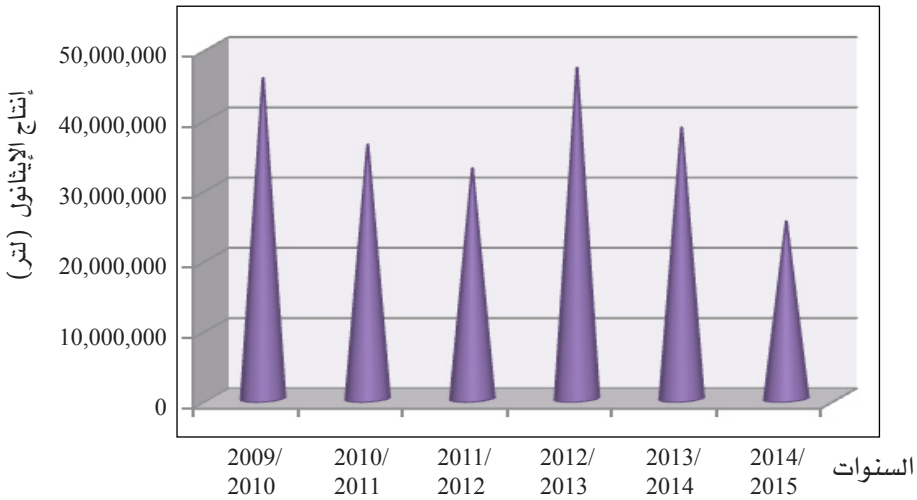

النتائج

يتضح من خلال تقدير معادلة الربح باستخدام نموذج الانحدار الخطي المتعدد بوجود علاقة موجبة بين إنتاج الإيثانول والإيرادات، أي كلما زادت الإيرادات بوحدة واحدة تزيد الأرباح بحوالي ٠,٣٧ قرشاً، وهذه تمثل قيمة مضافة للمولاص. وأن معامل إنتاج

الإيثانول تساوى ١,٤ وهي قيمة موجبة، وتعني العلاقة طردية بين إنتاج الإيثانول والربح، حيث أن زيادة إنتاج الإيثانول بوحدة واحدة تؤدي إلى زيادة الأرباح بحوالي ١,٤ جنيهاً. وأن قيمة التكلفة تساوي ٢,١٤-، وهي قيمة سالبة تؤكد وجود علاقة سالبة بين التكلفة والربح عند إنتاج الإيثانول. وهذه النتائج تؤكد الجدوى الاقتصادية لاستخدام المولاص في إنتاج الإيثانول. ومن خلال الدراسات الميدانية لبعض مصانع السكر في السودان اتضحت عدم وجود الصناعات المتكاملة لصناعات السكر بالرغم من الجدوى الاقتصادية لها.

التوصيات:

على ضوء كل ما تقدم من عرض للمادة البحثية ومناقشة للنتائج، توصي الدراسة بما يلي:

١. العمل على تشجيع الصناعات التكاملية التي تعتمد على مخلفات السكر في كل مصانع السكر القائمة في السودان، والتي يمكن أن تحقق فوائد اقتصادية وبيئية كبيرة عند تدويرها.

٢. ضرورة تطبيق تجربة مصنع سكر كنانة لإنتاج الإيثانول لكل مصانع السكر القائمة فى السودان.

٣. التنسيق بين مصنع جياد لإنتاج السيارات وبين مصانع الإيثانول لضمان استهلاك الوقود المنتج من المصانع.

٤. ضرورة توفير التمويل اللازم من الدولة لتشجيع الصناعات التكاملية للسكر، ومساعدة المصانع التي تعمل على تدوير مخلفات السكر لتسويق منتجاتها في الأسواق المحلية والخارجية.

٥. الاهتمام بالبحوث المتعلقة بإعادة تدوير مخلفات السكر من الناحية الفنية والاقتصادية والبيئية.

٦. الاستفادة من تجارب الدول التي سبقت السودان في مجال الصناعات التكاملية في إنتاج غاز الإيثانول، وبالأخص جمهورية مصر العربية.

قاموس أعلام السودان لرتشارد هِلْ مُترجَماً إلى العربية: استعراض ونظرات نقدية في المتن والترجمة

عرض: خالد فرح

إن الكتاب الذي نحن بصدد عرضه عبارة عن ترجمة إلى اللغة العربية لكتاب الإداري والأستاذ الجامعي والباحث البريطاني المتخصص في تاريخ السودان، ريتشارد ليزلي هِلْ (1901-1996) Richard Leslie Hill. وقد طبع هذه الترجمة في مطابع السودان للعملة المحدودة عام ٢٠١٦م. يسعى الكتاب إلى التعريف بأبرز الشخصيات من السودانيين والأجانب الذين كان لهم وجود فاعل، حقيقي أو معنوي، داخل السودان، أو كان لهم تأثير مقدَّر على مجريات الأحداث فيه منذ أقدم العصور وحتى العام ١٩٤٨، ذلك الكتاب الموسوم بـ A Biographical Dictionary of the Sudan.

صدرت هذه الترجمة العربية التي نحن بصددها في هذا المقال، في ٤٤٧ صفحة من القطع المتوسط تحت عنوان: "مُعجم تراجم أعلام السودان: منذ أقدم العصور حتى عام ١٩٤٨". وقد أنجز هذه الترجمة وتوفَّر عليها، الأستاذ سيف الدين عبد الحميد النعيم، الكاتب والأديب والصحافي والمترجم، ثم الضابط الإداري بالمهنة، الذي سبق له أن رفد المكتبة السودانية والعربية عموماً، بتراجم باذخة لأسفار في غاية الأهمية مثل كتاب: An Arab tells his story (عربي يحكي قصته) لإدوارد عطية، و Tribes of Northern and Central Kordofan (قبائل شمال ووسط كردفان) للسير هارولد مكمايكل، و Sudan under Wingate (السودان تحت إدارة وينجت) للبروفيسور جبرائيل ويربيرغ.

ومما يُحمد للأستاذ سيف الدين عبد الحميد حقاً، أنه لم يكتف بتعريب هذا الكتاب فحسب، وإنما عمد إلى نقده وتحقيق بعض ما ورد فيه من معلومات ما وسعه ذلك، مستدركاً بذلك استدراكاً علمياً معتبراً على مؤلِّفه الأصلي، ريتشارد هل، مما سوف يتيح – بكل تأكيد – زوايا جديدة للنظر إلى محتوى هذا الكتاب ذي الأهمية البالغة كمصدر لا غنى عنه بالنسبة لسائر الباحثين في تاريخ السودان بمختلف حقبه.

فمن آيات نقده الصائب لبعض ما جاء في هذا الكتاب في نصه الأصلي من حيث المحتوى على سبيل المثال، تعليقه على ترجمة المؤلف ريتشارد هل للأمير المهدوي: "محمد الزاكي عثمان" الواردة في صفحة ٣٦١ من الكتاب، والتي جاء فيها:

"محمد الزاكي عثمان (– ١٨٩٨) ، أمير مهدوي، تعايشي من فرع الجُبارات الذي أنجب كثيراً من المقاتلين القياديين للنظام المهدوي، كان أمير بربر حيث نال لقب أبو فرّار.* قُتل في معركة أم درمان"

فقد جاء تعليق المترجم عليها كما يلي:

" * المترجم: أورد المؤلف – خطأ – أبو فرَّار بأنها أبو الزئبق هكذا:
he earned him the nickname of Abu Farrar (Father of Quicksilver)
والفَرَّار عند السودانيين هو الفأس، والمقصود بالكُنية عندهم مرض السحائي "أبو فرَّار". وربما شبَّه أهالي بربر الزاكي عثمان بهذا المرض، لجامع الشبه في الإصابة القاتلة، وكان الأحرى بالمؤلف أن يورد النص الإنجليزي هكذا:
He earned him the nickname of Abu Farrar (Father of Axe)
ولأن التعبير (Father of Axe) غير معلوم للقارئ الأجنبي، يمكن للمؤلف أن يوردها إنجليزية صريحة كأن يقول: He earned him the nickname of Meningitis

ومن دلائل تحقيقه السديد مثلاً، أنه صوَّب في صفحة ٣٤٨ ما كان أورده المؤلف خطأ في كتابه عن تاريخ ميلاد الإمام المهدي الذي جعله هِلْ في عام ١٨٤٨م، بينما أثبت المترجم التاريخ المتفق عليه، وهو العام ١٨٤٣، كما صوَّب ما أورده المؤلف خطأ أيضاً في ذات الصفحة عن تاريخ معركة شيكان، التي كتب المؤلف أنها قد حدثت في شهر أكتوبر ١٨٨٣م، بينما الصواب هو أنها وقعت في شهر نوفمبر من ذلك العام، وهو ما أثبته هذا المترجم المحقق أيضاً.

وقد قام المترجم في مقدمته (مقدمة المترجم) بالتعريف بالكتاب ومحتواه، وتواريخ نشره، والجهد الذي بذله هو في تعريبه. كذلك أورد كثيراً من المعلومات والملاحظات المهمة حول الكتاب، فذكر أنه قد صدرت للمعجم طبعتان ، كانت الأولى منهما في عام ١٩٥٥م، والأخرى في عام ١٩٦٦م.

ذكر المترجم أن المؤلف قد حدَّد إطاراً زمنياً لشخصيات المعجم، حيث كرَّسه لمن عاشوا قبل عام ١٩٤٨، بيد أنه قد لاحظ مُحقَّاً مع ذلك، أن هنالك شخصيات سودانية مهمة توفيت قبل ذلك التاريخ ولكن لم تجد حظها داخل هذا المعجم الفسيفسائي، كالشريف حمد أبو دُنَّانة، والشيخ فرح ودتكتوك، والشاعر والمغني الشهير خليل فرح، ومحمد عباس أبو الريش، وعرفات محمد عبد الله، ومعاوية نور، والمطرب الحاج محمد أحمد سرور وغيرهم.

ثم بيَّن المترجم بعد ذلك، المنهج الذي اتبعه في تعريب هذا السفر، مشيراً بصفة خاصة إلى الأسلوب الذي اتبعه في رسم أسماء الأعلام المعنيين، مما اقتضاه – بطبيعة الحال – الاختلاف في الهجاء بين اللغتين الإنجليزية، أو بالأحرى بالحروف اللاتينية في مقابل العربية، فضلاً عن بعض التفاصيل الأخرى ذات الطبيعة التحريرية.

على أننا نود من خلال هذا العرض أن نتتبع بشيء من النقد والتحقيق مادة كتاب ريتشارد هَلْ نفسه، ونعني بذلك ما دعاها المترجم بالأخطاء المعلوماتية التي وقع فيها المؤلف، وندَّتْ عنه هو نفسه رغم اجتهاده في تصويب الكثير منها، كما سنتوقف عند بعض الأشياء في ترجمة سيف الدين عبد الحميد لهذا الكتاب إلى العربية، ما وفقنا الله تعالى إلى ذلك تعميماً للفائدة.

ولعل أول ملاحظة نبدأ بها، هي أن المترجم قد عمد إلى إثبات أسماء جميع الأعلام المُتَرجم لها في الكتاب، بما في ذلك أسماء الغربيين من أوروبيين وأمريكان وقدماء الإغريق والرومان وغيرهم، بالحرف العربي فقط، ويا ليته لو أبقى على رسم تلك الأسماء بالحروف اللاتينية أيضاً، تسهيلاً لمن عسى أن يريد الاستزادة من المعلومات، أو الاستيثاق من معلومات بعينها تتعلق بهذه الشخصية أو تلك، من مصادر أخرى مثل موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية على غرار ما فعل المترجم نفسه، أو من غيرها من المصادر، خصوصاً وأنَّ المعلومات أو التراجم باللغة العربية عن كثير من تلك الشخصيات، تكون عادةً شحيحة للغاية، أو حتى معدومة بالكلية.

كذلك نود أن نؤمِّن على ما ذهب إليه المترجم من أن المؤلِّف قد أغفل أو سها عن إثبات أسماء أعلام كثر، كان لهم حضورهم المؤثِّر في تاريخ السودان في مختلف الحقب منذ أقدم العصور وحتى التاريخ الذي حدَّده لنهاية تراجمه، أي عام ١٩٤٨م. فمن بين أولئك الأعلام البارزين والمهمين، على سبيل المثال:

الفرعون المصري "أحمُس" الذي طرد الهكسوس من مصر في القرن السادس عشر قبل الميلاد، لأنه هو نفسه الذي مهَّد لغزو أرض السودان في عهد مملكة كوش الأولى أو "كرمة" واحتلال أجزاء كبيرة منها، ولفترة استمرت لقرابة الخمسة قرون، وذلك انتقاماً منها – إلى جانب دوافع أخرى بالطبع –

لأنها كانت تقيم علاقات دبلوماسية مع الهكسوس، مما هو مثبت في تاريخ تلك الحقبة. هذا مع العلم بأن المؤلِّف قد حرص حرصاً ملحوظاً على إثبات أسماء سائر الفراعنة الذين سادوا خلال فترة هيمنة مصر على كوش، وخصوصاً ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، مثلما أثبت أسماء كثير ممن تولوا منصب نائب الملك المصري في كوش.

كذلك لم يذكر المؤلف اسم النبي موسى عليه السلام، الذي يُعتقد على نطاق واسع أنه عاش في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، والذي يذكر سفر التكوين من الكتاب المقدس أنه اتخذ امرأة كوشية، بينما تذكر بعض الروايات والمصادر الأخرى، أنه هو نفسه قد غزا أرض السودان عندما كان أميرا في بلاط فرعون مصر، كما ورد على سبيل المثال في كتاب "تاريخ اليهود" *The Jewish Antiquities* للحبر اليهودي والمواطن الروماني جوزيفوس فلافيوس، الذي عاش في القرن الميلادي الأول. ولا مُعوّل على افتراض أن يكون المؤلف قد اعتبر موسى شخصية أسطورية مثلاً، لأنه قد أورد بالفعل أسماء شخصيات أسطورية أخرى. ولم يذكر المؤلف كذلك شخصية سودانية مهمة ولها وجودها التاريخي المثبت، حتى في المصادر الكلاسيكية الأوروبية نفسها، وهو الملك المروي "أرقماني" الذي حكم في القرن الثالث قبل الميلاد، وقصته المشهورة مع الكهنة.

وكذلك لاحظنا أن المؤلف لم يذكر "كنداكة" بوصفه لقباً لسلسلة من ملكات مملكة مروي السودانية، كما لم يذكر أية واحدة منهن بالاسم مثل أماني ريناس، وأماني تيري ، وأماني شخيتي وغيرهن، مما هو ثابت ومعروف في تاريخ مملكة مروي.

أما فيما يختص بالشخصيات المعاصرة لتاريخ السودان الوسيط، فنعتقد أنه كان ينبغي أن يذكر المؤلف اسم الخليفة الراشد عثمان بن عفان، لأن في عهده تم الاحتكاك الأول بين النوبة وجيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح، الذي كان أخاً لعثمان رضي الله عنه من الرضاعة كما يقول المؤرخون.

وإلى جانب ذلك أغفل المؤلف ذكر عبد الله وعبيد الله ابني مروان بن محمد الحمار، آخر خلفاء بني أمية، الذين فرا من مصر ووصلا إلى أرض النوبة والبجه لاجئين خوفاً من العباسيين، مما هو مثبت في التاريخ، كما لم يترجم لزعيم قبيلة ربيعة العربية بشرق السودان في القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي، أبي إسحق بشر بن مروان، الذي عاصره وأثبت تاريخه ووجوده في بلاد البجه أبو علي المسعودي في كتابه: "مروج الذهب"، مع أنَّ هِلْ قد ترجم للمسعودي هذا نفسه في كتابه، وذكر إلمامه بذلك الصقع من أرض السودان.

وأخيراً، لاحظنا أن المؤلف قد غفل أيضاً عن ذكر نفر من الشخصيات المهمة ذات الارتباط القوي بتاريخ السودان الحديث؛ فلم يترجم لها، مثل: السيد أحمد بن إدريس الفاسي المتوفى في عام ١٨٣٧م، والشيخ محمد بن عبد الكريم السمَّان المتوفى في عام ١٧٧٥م، والشيخ أحمد بن محمد التجاني المتوفى في عام ١٨١٥م، وكذلك الشيخ محمد بن عبدالوهاب التميمي المتوفى في عام ١٧٩٢م، والذين ما تزال آثار تعاليمهم وأفكارهم ماثلة في السودان إلى يومنا هذا.

وكنا نتوقع كذلك أن يذكر المؤلف اسمي كل من الفيلسوف الاشتراكي الألماني كارل ماركس المتوفى في عام ١٨٨٣م، والمفكر والقائد السياسي

الروسي الماركسي، فلادمير ايليتش لينين المتوفى في عام ١٩٢٤م، كشخصيتين بارزتين تركتا أثراً واضحاً على خارطة الفكر والسياسة في السودان، على الأقل منذ منتصف القرن العشرين الذي شهد ميلاد الحزب الشيوعي السوداني. ولئن كان معذوراً عن إغفال اسميهما في الطبعة الأولى التي صدرت في عام ١٩٥١، حيث لم تكن الشيوعية في السودان بذلك الشيوع والتأثير، فإننا لا نرى مسوغاً لعدم استدراكه ذلك من ضمن ما استدرك، في الطبعة الثانية التي صدرت في عام ١٩٦٦م.

ولكي تكتمل الصورة – كما يقال – فإن بوسعنا أن نقول أيضاً، إنه لولا أن الشيخ حسن البنا قد اغتيل في عام ١٩٤٩، أي بعد سنة واحدة فقط من التاريخ الذي حدَّده المؤلف لانتهاء تراجمه، لكان حرياً به أن يذكره بكل تأكيد، من بين أبرز الشخصيات التي كان – وما يزال – لها أثرها الفكري والثقافي والسياسي الكبير في السودان المعاصر، وكان حقه أيضاً أن يترجم له مستدركاً في طبعة سنة ١٩٦٦م.

والآن فلنأت لبعض النقاط المحدَّدة التي عنَّ لنا أن نذكرها في هذا المضمار:

- في معرض تعريفه بـ "آدم رجال" (توفي في عام ١٩١١م)، وهو أحد وجهاء الفور في عهد السلطان إبراهيم قرض. ذكر هِل (أم لعلها هفوة من المترجم) في صفحة (١٩) أن ابن عمه هو عبد الرحمن أبو حبّو، زعيم قبيلة الهبانية، ثم عاد في صفحة (٢٠) لكي يقول إن السلطان قد اتهمه بالعبث بولاء الجيش، والتآمر ضد حياته، ومساعدة بني هلبة بزعامة عبد الرحمن أبو حبُّو على الهجرة إلى دار سلا. فأي القبيلتين هي المقصودة، الهبانية أم البني هلبة؟

- وفي صفحة (٢٠) ذاتها، يورد هل في معرض تعريفه بآدم باشا العريفي أن تاريخ ميلاده تقريباً هو سنة ١٨١٥م، ولم يذكر شيئاً عن تاريخ وفاته، مع أن تاريخ وفاته هو الأقرب إلى أن يكون محفوظاً بالضبط ، لأنه كان ضابطاً عظيماً في عهد الإدارة التركية المصرية، وتوفي قبل المهدية، ودفن مع من دفن من رموز تلك الحقبة في "قبب الأتراك" الكائنة بشارع البلدية بالخرطوم إلى اليوم.

- وفي معرض الترجمة للرحالة العربي أبو القاسم بن حوقل (حوالي ٩٠٠ – ٩٦٠م)، ذكر هِلْ أنه مؤلف كتاب "المسالك والممالك" الذي يحوي – كما قال – إشارات موجزة إلى ساحل البحر الأحمر السوداني وإلى بلاد البجا وبلاد النوبة، ولم يذكر كتابه المهم الآخر "صورة الأرض"، وهو لعمري أبلغ دلالة في التعريف ببلاد السودان في القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي، لأنه يذكر فيه أنه زار سوبا عاصمة علوة ووجد فيها قصوراً وكنائس عامرة بالذهب، والأكثر لفتاً للانتباه أنه قال إنه وجد بها "رَبَضاً" أي حيًّاً أو مستوطنة يسكن فيها جماعة من المسلمين، وأوضح أن التجار العرب كانوا يترددون على تلك المملكة عهدئذٍ.

- في صفحة (٣٩)، في معرض الترجمة للسلطان أبي القاسم بن السلطان أحمد بكر، سلطان دار فور، ذكر أنه خلف ابن أخيه "عمر ليلى (ليلي)"، الخ. والصواب هو "عمر ليل" بدون ياء في آخره. وقيل إن ذلك كان لقباً له معناه "الحمار" في لغة الفور. فكأن لقبه مطابقاً تماماً للقب مروان بن محمد الحمار، آخر خلفاء بني أمية.

- وفي ترجمة أحمد الحاج الطاهر الفادني المتوفى في عام ١٩٤٢م، هنالك إشارة إلى أنه حفيد الشيخ "النعيم الفادني" بالألف واللام، بينما المشهور

هو أن اسم هذا الشيخ يُنطق "نعيم" هكذا بدون ألف ولام التعريف. وفي ذات الصفحة أيضاً، ترد ترجمة رجل الدين والقائد المهدوي، أحمد طه، الذي استشهد في عام ١٨٨٢م. والشخص المترجم له هو "الشريف أحمد ود طه"، وهو بهذا الاسم أعرف وأشهر، فكان على المترجم أن ينبِّه إلى ذلك في إطار استكمال التحقيق.

- وكذلك في صفحة (٤٦) والصفحة (٤٧) التي تلتها، في معرض ترجمة الشيخ أحمد الطيب البشير، ذكر هِلْ أن الشيخ عبد المحمود نور الدائم، وهو حفيد ذلك الشيخ، قد كتب تاريخاً في مخطوطة عن أشهر تلامذة جده بعنوان: "الكؤوس المترعة في مناقب السادة الأربعة"، كما كتب سيرة له (أي لجده الشيخ الطيب) بعنوان: "أزاهير الرياض في مناقب العارف بالله الشيخ أحمد الطيب". والحق هو أن التعريف بتلاميذ الشيخ أحمد الطيب البشير هو في كتاب "أزاهير الرياض" الذي استوعب تقريباً كافة تلاميذه، بينما أن كتاب "الكؤوس المترعة" هو مصنَّف ألفه الشيخ عبد المحمود في بيان مناقب جده الشيخ الطيب وشيخيه مصطفى البكري، ومحمد بن عبد الكريم السمَّان، بالإضافة إلى مناقب والده نفسه الشيخ نور الدائم بن الشيخ الطيب. فكأن الأمر قد التبس على المؤلف ريتشارد هِلْ.

- في ترجمة الزعيم الشكري، أحمد بك عوض الكريم أبوسن، الواردة بصفحة (٤٩)، ذكر هل أن الشيخ أبوسن صار حاكماً لمديرية الخرطوم لمدة عشر سنوات بين عامي ١٨٧٠ و١٨٨٠م. هذا في الوقت الذي قدّر فيه المؤلف أن ذلك الشيخ قد عاش بين عامي ١٧٩٠ و١٨٧٠، وهذا محال، لأنه إذا توفي في سنة ١٨٧٠م تقديراً، فكيف أصبح حاكماً بعد تاريخ وفاته لمدة عشرة أعوام؟ وعليه، فإنه لابد أن خطأ ما، قد اعترى هذه التواريخ.

كذلك نعتقد أن الترجمة الخاصة بالشيخ أحمد محمد أبو دقن ١٨٨٠ – ١٩٤٠م، المنشورة في صفحة ٥٠ من الكتاب، تنقصها معلومة مهمة لم يذكرها المؤلف في ترجمته لهذه الشخصية، وهي أنه كان أحد الذين تولوا الشياخة العامة للمعهد العلمي بأم درمان.

- في ترجمة الياس باشا أم برير المنشورة في صفحة ٨٠ و٨١ من النسخة المترجمة من الكتاب، زعم المؤلف أنه لم يبق إلا القليل لحفظ ذكراه (أي ذكرى الياس ود ام برير) حية في الأبيض الخ .. وهذا غير صحيح البتة. ذلك بأن واحداً من أعرق وأكبر الأحياء بمدينة الأبيض – على سبيل المثال – ما يزال يحمل إلى يومنا هذا اسم "ود الياس". وهو كما يُقال، منسوب إلى أحد أنجال الياس باشا نفسه، ولعله ابنه عُمَر الذي كان أميراً في المهدية.

- في صفحة ١٠٦ من النسخة المترجمة من الكتاب، وقع المؤلف في أخطاء شنيعة في ترجمة الشيخ برير ود الحَسين. ذلك بأنه قد جعل تاريخ ميلاده في عام ١٨٣٠م، وقد يكون ذلك معقولاً ومحتملاً، إلا أنه جعل تاريخ وفاته في عام ١٩١٩م بالتقريب كما قال. والحق هو أن عام ١٩١٩ تاريخ متأخر جداً لوفاة الشيخ برير. ذلك بأن هنالك رواية شعبية متواترة مفادها أن الإمام المهدي عندما كان في عام ١٨٨٤م، في طريقه من الرهد بكردفان، قاصداً الخرطوم ليفتحها، مر بالشيخ برير في "مسيده" بشبشة بالنيل الأبيض، وهو يومئذٍ شيخ كبير. قالوا: فطلب منه المهدي أن يصحبه في تلك الرحلة القاصدة لفتح الخرطوم وما وراءها مثل مصر وأرض الحجاز. فيزعمون أن الشيخ برير ردَّ على المهدي مُكاشفاً بقوله: "انت مقرن البحرين ماك فايتو .. وأنا شدرات ود عريض ديل ما فايتن!!". فما عتَّم الشيخ برير أن لحق بالرفيق الأعلى بعد ذلك بقليل، ودفن في ظل تلك الشجرات التي ذكرها.

وأفدح خطأً من ذلك، أن ريتشارد هل قد قال إن الشيخ بريـر: "شيخ ديني شهير للطريقة الإدريسية"، وهذا غير صحيح، وإنما الصحيح هو أنه كان شيخاً كبيراً للطريقة السمانية، أخذها عن الشيخ التوم ود بانقا المتوفى سنة ١٨٥٢م، الذي أخذها بدوره عن الشيخ أحمد الطيب البشير الذي أدخل هذه الطريقة إلى السودان، والمتوفى سنة ١٨٢٣م. والغريب أن هل قد ذكر بعد ذلك في معرض ذات الترجمة، أن كلا ابني الشيخ بريـر: النور والسماني، كانا شيخين شهيرين في الطريقة السمانية.

ومهما يكن من أمر في الختام، فإننا لابد أن نعرب عن شكرنا وامتناننا الجزيلين كسودانيين، للبروفيسور الراحل رتشارد هل، على هذه الخدمة الجليلة التي قدمها للعلم والمعرفة والتوثيق التاريخي، لهذا الكم الهائل من الشخصيات المرموقة من السودانيين وغيرهم، الذين كانت لهم أدوار أو صلات مشهورة مع السودان وتاريخه وأهله على مختلف الحقب المتعاقبة.

ولا بد بالطبع من كلمة ثناء وعرفان نزجيها لصديقنا البحاثة الهمام والمترجم الحاذق، الأستاذ سيف الدين عبد الحميد النعيم، على إنجازه هذه الترجمة الجيدة لهذا السفر والمرجع التاريخي المهم، آملين أن يجد فيما سطرنا من تصويبات وملاحظات على المتن، ومقترحات للترجمة، مادة تعينه على إخراج الطبعات القادمة من هذا العمل، في ثوب أنقى وأنصع، تكملة للفائدة.

هذا، والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

عرض كتاب: التعليم والأيديولوجيا: التعليم العام في السودان نموذجاً، تأليف: د. أحمد عوض أحمد البشير

عرض: الرشيد الحبوب

صدر الكتاب عن مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي،أم درمان في ٢٠١٧م. ويقع الكتاب في ٣٤٠ صفحة، وقسم إلى ستة فصول، سمي الفصل الأول باسم التربية، وبه تعريف لها وعملياتها مع تطورها التاريخي، وعلاقتها بالظواهر الحيوية بالمجتمع، وتحدياتها. أما الفصل الثاني، فقد حمل اسم "الأيديولوجيا"؛ وفي هذا الفصل تعرض لعدد من الأيديولوجيات لدى الفلاسفة والمفكرين وعلماء الاجتماع، وفي الفلسفات والمدارس السيسيولوجية (الاجتماعية) والتيارات الفكرية، والظواهر الاجتماعية الأخرى. أخذ الفصل الثالث اسم "التعليم والايديولوجيا" واشتمل على ما أسماه الكاتب بمتلازمة التعليم والأيديولوجيا، والنظريات التربوية من منظور أيديولوجي، والدور الأيديولوجي لمؤسسات التعليم، والوسائل التربوية الأيديولوجية، والتنشئة السياسية، والتربية المدنية، وديمقراطية التعليم وتكافؤ الفرص التعليمية، وحقوق الإنسان وتعليم حقوق الإنسان. خصص الفصل الرابع لـ "التعليم في السودان"، وفيه تناول الكاتب تطور التعليم في السودان، وفلسفته وسياساته والتخطيط له وأهدافه ومناهجه وإعداد وتدريب المعلمين وتمويل التعليم.

أما الفصل الخامس فقد جاء بعنوان: "الأيديولوجيا السودانية"، حيث تناول فيه الكاتب تطور الأيديولوجيا السودانية، ومعضلة الهوية والموقف الثقافي منها وتياراتها، ثم مكونات الأيديولوجيا السودانية والتي حددها في اللغة العربية، والدين الإسلامي، والهيمنة الذكورية، وهيمنة الوسط الجغرافي، والأبعاد الطبقية. وتناول كذلك قضية الوحدة الوطنية في السودان.

الفصل السادس والأخير من الكتاب أسماه الكاتب "الأيديولوجيا في المناهج السودانية"، وفيه ركز الكاتب على تحليل وتقويم مقررات اللغة العربية للأدب والنصوص لمرحلة التعليم الأساسي والثانوي في ضوء مكونات الأيديولوجيا السودانية كما حددت في الفصل الرابع، واختتم الكاتب كتابه بعرض أهم النتائج وانتهى بخاتمة.

هدف الكتاب

ظل مفهوم الأيديولوجيا موضوع جدل متواصل في العلوم الإنسانية جميعها، وأنه شغل المثقفين لما له من انعكاسات تمثل هدف كتابة الكتاب من وجهة نظر الكاتب في بحث هذه الظاهرة المتجدِّدة، ويعتبره ضرورة قصوى.

أهمية موضوع الكتاب

يلخِّص الكاتب أهمية دراسة ظاهرة الأيديولوجيا في أنها تمكِّن الفرد من التوظيف المتباين للأيديولوجيا، واستغلالها لخدمة الجماعات والفئات الاجتماعية بأبعادها الاقتصادية، ودراسة الظاهرة في استغلالها لكل ما يحيط بالإنسان، من وعي اجتماعي، ومؤسسات تنشئة اجتماعية ومن بينها مجال التربية والتعليم، وبناء الدولة الوطنية، دولة المؤسسات والقانون والرفاه الاجتماعي، الدولة المدنية والتوزيع العادل للثروة والسلطة، والهوية، وحقوق القوميات والتنوع العرقي والديني والثقافي والوحدة الوطنية.

عرض الأفكار الرئيسة والتوازن بين الفصول

على وجه العموم، اتسمت فصول الكتاب بالتوازن، حيث تراوحت بين الأربعين والخمسين صفحة. ولكن بما أن التعليم وعلاقته بالأيديولوجيا السائدة في السودان هو الموضوع الأساسي، كان بإمكان الكاتب اختصار الفصل الأول

الذي تناول موضوع التربية في ٤٦ صفحة. ويرجع السبب في طول هذا الفصل إلى أن مفهوم التربية دائري شامل أكثر من التعليم، مع أن كلا المفهومين متلازمان، ولا يعمل أحدهما بمعزل عن الآخر. الشئ الآخر، إن التربية لا تتم فقط في المدرسة، وإنما لها العديد من الوسائط والمؤسسات التربوية، بينما التعليم لا يتم بصفة نظامية إلا في المدرسة وفق خطة مدروسة وموضوعة مسبقاً. أضف إلى ذلك أن كل ما ورد عن موضوع التربية في المباحث الإثني عشر لا يعثر القارئ فيه على أي ارتباط أو اقتران بين التربية من ناحية والأيديولوجية من الناحية الأخرى.

كان بالإمكان أيضاً إضافة فصل قصير نوعاً ما عن الثقافة من حيث معناها وخصائصها وأنماطها وعلاقتها بالأيديولوجيا السائدة في أي مجتمع من المجتمعات. ذلك أن الثقافة، سواءً كانت عامة أو خاصة، تؤثر بشكل كبير على تغير الكثير من الأفكار والممارسات التربوية، كما يمكن أن تبشر بثقافة وطنية مدنية، ديمقراطية أو تعسفية إقصائية واستبدادية. الثقافة بهذا المفهوم تلعب دوراً أساسياً في التربية الاجتماعية للفرد وصياغته صياغة معيَّنة بحيث يتقبل أو يرفض ما يطرأ من مُثُل وأفكار تبشر بها أي أيديولوجية تظهر في مجتمعه. الثقافة أيضاً تتأثر بعوامل ومؤثرات أيديولوجية خارجية نتيجة التأثير الإعلامي الضاغط والاقتباس والغزو الفكري والاستعارة لأفكار الآخرين.

كما كان من المناسب لو حل الفصل الخامس الذي تناول الأيديولوجيا السودانية محل الفصل الرابع الذي ناقش موضوع التعليم في السودان، لأن الحديث عن التعليم في السودان لا يتضح إلا في إطار ملامح الأيديولوجيا السودانية وخصائصها ومكوناتها.

ذكر الكاتب أن مكونات الأيديولوجيا السودانية المذكورة أعلاه هي عامة، وليست بالضرورة أن تكون متوازنة ومتكافئة في شحناتها الأيديولوجية السالبة والموجبة، بل حتى في انعكاساتها في السلوك اليومي للمجتمع وأفراده، بل حتى تكويناته وأحزابه السياسية.

عن المكوِّن الثاني من مكونات الأيديولوجيا السودانية (ص ٢٥١) والمتمثلة في "الدين الإسلامي"، تحدث الكاتب بنبرة قوية وحادة لا تخلو من التحيُّز والميل السياسي؛ على سبيل المثال ذكر أن الأيديولوجيا بمعناها الإسلامي في السودان قد استخدمت لتخدم المصالح الاقتصادية والطبقية مع الحصول على المزايا الاجتماعية، وفي ذلك تتضخم الذات الفردية بحسبان الأفضلية لممتلك الرؤية الأيديولوجية الإسلامية. لتدعيم ذلك الرأي استشهد بما قاله حيدر إبراهيم: "أظهر الإسلاميون عقب وصولهم للسلطة، تعالياً مستهجناً .. وعدم الورع في الإساءة والتحقير والاستخفاف بالآخرين". ذكر أيضاً في هذا الخصوص أن تاريخ السودان الحديث قد شهد استغلال العقائدية الدينية الإسلامية لمكوِّن أيديولوجي أصيل وفاعل على المستوى الفردي والجماعي والسياسي ونظام الحكم ونكران التعددية والدعوة للحرب على الكفار (دار حرب)، مما يفسح المجال لطغيان نظرية المؤامرة شرحاً لكل الخلافات الداخلية والتحديات، وتصبح كل العناصر الأخرى انفصالية وتدعو إلى تمزيق الأمة (ص ٢٥٣).

على وجه العموم لم يكن التناول لعناصر موضوع "الأيديولوجيا السودانية" موضوعياً بالقدر الكافي، خاصة وأن التركيز في الفصل كان على الجانب السياسي من الأيديولوجيا والذي شابه بعض التحيُّز عندما تعرض للنظام السياسي الحالي في السودان.

في مدخله إلى "الأيديولوجيا السودانية"، ذكر الكاتب أن الأيديولوجيا في محتواها النظري والعملي تمثل جزءاً من الوعي الاجتماعي الجمعي للمجتمع، وبما أنها تعبر عن رؤى السائد اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً بالضرورة تفرز "جينات" فكرية مفاهيمية، وقيمية ومعتقدات، وعادات وتقاليد، وأنماط سلوك، بل حتى مشاعر وتركيبة نفسية تشكل الشخصية الإنسانية وتحدِّد أدوارها من خلال التنشئة الاجتماعية وعمليات التطبيع والنمذجة التي يراد لها أن تؤدى بالكيفية التي تتسق مع المصالح الحقيقية للأيديولوجيا السائدة. كل ذلك لم ينعكس بشكل واضح ومحدَّد في مباحث الفصل، بل كان التركيز على الجانب السياسي والتطور السياسي في السودان في تاريخه الحديث.

طرح الكاتب في صفحة (٢٢١) سؤالاً مفصلياً لخصه في: هل هناك أيديولوجيا سودانية؟ وعند محاولته الإجابة عن ذلك السؤال ذكر أن الأيديولوجيا بالضرورة لا تقوم ولا تستمر إلا بمعزل عن المكوِّنات المجتمعية والتي يرى أنها فعل تراكمي تدخل فيه الكثير من المؤثرات التي تتماهى مع الوجود الاجتماعي، ونمط الحياة بالمجتمع، والثقافة، والعادات والتقاليد، والمعتقدات، والقيم السائدة سواءً كانت نظرية، سياسية، اقتصادية، اجتماعية، دينية، أخلاقية، أو جمالية. بالنظر إلى هذه المكونات المذكورة لا يتضح أن الأيديولوجيا السودانية التي يتحدث عنها الكاتب محدَّدة وواضحة المعالم والمكوِّنات والعناصر. بدلاً من بيان ذلك البيان الكافي، انغمس الكاتب في سرد الصيرورة التاريخية للهوية السودانية ممزوجة بقضايا السلطة والسياسة.

ما أشار إليه الكاتب تحت عنوان "مكونات الأيديولوجيا السودانية" (ص٢٤٨) لا يحدِّد بالقدر الكافي السمات العامة التي تميز الأيديولوجيا السودانية – كما ذكر الكاتب.

الفصل الرابع لو جاء بعنوان "التربية والتعليم في السودان" (بدلاً عن ماذا؟ تذكر أن هذا الكتاب ليس في يد القارئ) لكان أفضل، نسبة للتداخل والارتباط بين الطرفين. فإذا عدل العنوان بالصيغة المذكورة، يكون من المفيد إضافة موضوعين لذلك الفصل أحدهما عن أصول التربية السودانية، والتي أشار إليها الكاتب إشارة عابرة في صفحة (١٢٧)، والآخر عن الإدارة التربوية والتعليمية والمدرسية في نظام التعليم السوداني.

في صفحة (١١٩) يدعو الكاتب إلى تفكيك مفهومي التربية والتعليم، ولكنه ركز فقط على جانب التعليم، وعلى العكس من ذلك رجع في الصفحة (١٢٣) ليؤكد ما أسماه بمتلازمة التربية والأيديولوجيا، وفي ذلك الصدد ذكر في نفس الصفحة أنه "طالما هناك تربية، لابد أن تكون هناك أيديولوجيا، بل كذلك بأنه طالما هناك مجتمع إنساني، لابد أن تكون هناك تربية وأيديولوجيا". بما أن التعليم يعتبر وسيلة التربية، لذا يلزم الاقتران بين كل من التربية والتعليم عندما يتعلق الأمر بمعالجة مسألة الأيديولوجيا. التربية لا تنزل إلى الواقع في شكل سلوك إلا بواسطة التعليم وطرائقه. ومن جوانب التأثير الأيديولوجي على التربية، أنها تعمل بشكل فاعل وإلى حد كبير في تشكيل النظم التربوية وتقسيمها إلى نظم نمطية ونظم تنوعية تختلف شكلاً ومحتوىً.

في الفصل السادس الموسوم: "الأيديولوجيا في المناهج الدراسية السودانية" أشار الكاتب إلى أنه اتبع نفس المسار النظري المتعلق بدراسة العلاقة أو جدلية العلاقة بين التعليم والأيديولوجيا، وتأثير الأيديولوجيا على التعليم، ثم أضاف أنه سوف يركز على تحليل محتوى المقررات الدراسية للغة العربية الحالية في السودان، وتحديداً الجزء الخاص بالمطالعة والأدب لكل من مرحلة التعليم الأساسي والمرحلة الثانوية.

السؤال الذي يطرح نفسه: هل تمثل اللغة العربية في جزئيتها الخاصة بالأدب والمطالعة، المناهج الدراسية السودانية في المرحلتين؟

كان من الممكن تناول المناهج الدراسية في جوانب أهدافها العامة وفلسفتها حتى ينسجم ذلك ويتناغم مع العنوان الذي جعله الكاتب لذلك الفصل من فصول الكتاب.

هناك جانب آخر مهم أُغفلت مناقشته والأثر الأيديولوجي الذي يتركه، ألا وهو المنهج الخفي الذي يلعب دوراً مؤثراً على عقل التلميذ وسلوكه وميوله واتجاهاته بصورة غير مباشرة بفعل القصدية والتكرار.

سؤال آخر يطرح نفسه أيضاً وهو: هل تحليل محتوى المطالعة والأدب يكفي لتحقيق وإثبات الفرضيات التي أسماها الكاتب "جوهرية"؟ الفرضيات المتمثلة في: البعد الإسلامي، والبعد العروبي للمنهج، والبعد السوداني للمنهج، وبعد التنوع اللغوي، والعرقي، والديني، والثقافي في المناهج، والذكوري، والطبقي، والعسكري، بالإضافة إلى الأسماء والصور والرسومات المصاحبة للمناهج ودلالتها. فالمنهج الدراسي في معناه العام يشمل بالإضافة للمقررات الدراسية كافة أنواع النشاط المدرسي، والذي غاب تماماً عن التحليل. ألم تستخدم الآيويولوجيات الشيوعية الماركسية في الماضي النشاط المدرسي الممنهج كوسيلة من وسائل التربية السياسية وتنميط العقل الجمعي للتلاميذ والطلاب حتى في مرحلة الجامعة؟

تحليل العلاقات بين أهداف الكتاب والنتائج

لم يتبين الهدف الأساسي للكتاب إلا عندما بلغ الكاتب فصله الخامس والموسوم بـ "الأيديولوجيا السودانية". من خلال الاطلاع على هذا الفصل يمكن

القول إن الكاتب كان دوماً يرمي لإثبات أن هناك أيديولوجيا سودانية عامة يتفق حولها معظم السودانيين، وأنه على الرغم من وجود أيديولوجيا عامة ملموسة في الحياة اليومية في معاملات السودانيين وجهاز الدولة، وأجهزة الإعلام والثقافة، إلا أنه يريد الوصول إلى إثبات وجود أيديولوجيا ثانية مغايرة، وبعضها مناوئ للسائد من الأيديولوجيا ولكنها مقموعة إلى حد كبير في ظل النظم الديكتاتورية. إنه يعني الأيديولوجيا السياسية المسيطرة كعرف مؤثر على حركة المجتمع.

بالنظر إلى النتائج والتي حوت الكثير من مثالب ومشكلات المجتمع السوداني، يمكن القول إنه أراد أن يقول بكل وضوح أن الأيديولوجيا السودانية، بدلاً من أن تلعب دورها الفاعل في تربية وازدهار المجتمع، فعلت تماماً عكس ذلك، والسبب في رأيه على ما يبدو أثر الهيمنة والسيطرة من قبل النظم الدكتاتورية (ربما يعني العسكرية) التي تعاقبت على السودان. إن كان هذا ما رمى إليه الكاتب، فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل يحكم على صلاحية الأيديولوجية وعدمها في ظل نظام سياسي معين في فترة معينة، أم أن الأيديولوجيا تتشكل على مدى زمني طويل وحقب تاريخية مديدة؟ لعل الكاتب قد أكَّد على هذا المعنى (ص ٢٢٢) بقوله: "وتاريخ الأيديولوجيا في السودان يرجع للممالك السودانية القديمة، فهي قديمة قدم الحضارة السودانية، والمجتمعات الإنسانية التي شكلها الإنسان السوداني عبر الحقب التاريخية المختلفة".

من خلال التمعن في النتائج التي خرج بها الكاتب، والتي بدورها جاءت سلبية تماماً، يمكن القول إن الكاتب قد عمد أن يقول إن دور الأيديولوجيا السودانية كان سلبياً، الشيء الذي من شأنه التأثير السالب على أوجه الحياة في المجتمع السوداني. هذا شئ مغاير تماماً لما ذكره الكاتب عندما تحدث

عن أهمية الكتاب في التعليم والأيديولوجيا باعتباره مرتبطاً بكثير من القضايا والتحديات التي تؤرق مضاجع الدولة وسكانها. ولعل هذا المعنى ظهر جلياً عندما أكَّد على أن التعليم يمكن أن يوظف للازدهار والتطور الاجتماعي، مثلما يمكن أن يوظف لغير ذلك وفقاً لمصالح الفئات المسيطرة وأيديولجيتها.

في خاتمة كتابه، خرج الكاتب باستنتاج مفاده أن منهج التعليم المتبع حالياً تنتفي منه صفات الوطنية، والديمقراطية، والعدالة الاجتماعية، والنزعة القومية العلمية لبناء المناهج وتصميمها؛ فهو منهج أيديولوجي تم تفريغه من أبعاده التعليمية ودوره الرئيس في تنمية الخبرات التعليمية الضرورية للمتعلم، وذلك فهو أن يكفل ويضمن ديمقراطية التعليم وتكافؤ الفرص الدراسية وحقوق الإنسان، ويسهم بقدر وافر في تدهور التعليم وتسرب طلابه. لذا فالمنهج بكل هذه الصفات يعد مهدِّداً للوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي، وسواءً الشخصية السودانية والإنسانية. يبقى السؤال: كيف يمكن الخروج بذلك الاستنتاج والحكم من خلال تحليل جزئية المطالعة والأدب في منهج اللغة العربية؟

فنيات الكتابة في الكتاب

من حيث تنظيم الكتابة (Organization)، ويقصد بها تحديد العناوين الرئيسية والفرعية للموضوعات، ووضع الكلمات والعبارات في مكانها الملائم من الكتاب، فقد التزم الكاتب وأحسن وأجاد إلى حد كبير في هذا الجانب. لكن إذا نظرنا إلى الكتاب من ناحية التتابع المنطقي والتسلسل المتتابع للوحدات، يلاحظ شئ من القصور فيما يخص منطقية العرض، حيث أن الوحدات احتوت على معلومات لم ترتبط في كثير من الأحيان بما قبلها ولم تمهِّد لما يليها.

من حيث أسلوب الكتابة

التزم الكاتب بقواعد أسلوبية الكتابة والتي تعني التعبير عن دقة التفكير لدى الكاتب مع الموضوعية والوضوح والإيجاز، كما استخدم الكلمات الدقيقة المعبِّرة، وكذلك تجنب استخدام الجمل أو العبارات الغامضة. كما تميزت الكتابة عنده بسلاسة التعبير وانسياب الأسلوب. ومن أمثلة ذلك وضع صيغ الأزمنة المناسبة عند الكتابة، أي الإشارة إلى ما تم بحثه بصيغة الماضي، كما تجنب الجمل الطويلة والمشتملة على عناصر كثيرة، وتحاشى الاستخدام المفرط للأفعال المبنية للمجهول، كما أحسن استخدام الفقرات وتوظيفها، حيث لم تتعد في المتوسط (٣-٤) فقرات في الصفحة الواحدة، لكن فقط يعاب عليه أن بعض الفقرات المتفرقة جاءت مبتورة، حيث لم تتصل بما قبلها وما بعدها.

إلى حد كبير تمكن الكاتب من أن يجعل الاقتباسات في الكتاب هادفة، حيث أنها لم تقتبس إلا لدعم موقف من المواقف أو تفنيد رأي معين، أو لأن تجعل المعنى المطروح أو لمقارنة رأي برأي آخر. استطاع الكاتب أيضاً أن يوظف الاقتباسات لخدمة عرض أفكاره بدلاً من أن تكون خادمة لها.

كذلك لم يفرط الكاتب في الاقتباس أكثر مما يلزم، ومن المعلوم أن كثرة الاقتباسات قد تفهم على عدم قدرة الكاتب وعدم ثقته في نفسه، حيث يشعر القارئ بأنه لا وجود لشخصية الكاتب فيما يقرأ. إضافة إلى أن كثرة الاقتباسات في غير موضعها قد تضعف التماسك المنطقي لموضوع الكتابة.

الجداول

من الاعتبارات التي يلزم مراعاتها عند تصميم الجداول ووصفها في أجزاء الكتاب:

١- عدم الإكثار من الجداول دون ضرورة.

٢- التمهيد لتقديم الجداول حيث لا يأتي مفاجئاً.

٣- يجب أن يشار إلى الجدول بعد عرضه وليس قبله.

٤- وضع عنوان توضيحي للجدول.

٥- ألا يكون حجم الجدول أكبر من حجم صفحة الكتاب.

في ضوء ما تقدم من اعتبارات، يمكن القول إن الكاتب قد أحسن وأجاد في تصميمه للجداول الواردة في كتابه رغم قلتها.

استخدام علامات الوقف والترقيم:

استخدام الكاتب ووظف علامات الوقف والترقيم بعناية وبكفاءة عالية في معظم أجزاء كتابه، حيث وضعت في مكانها الصحيح.

لغة الكتاب

جاء الكتاب بلغة واضحة وخالية من الأخطاء الإملائية أو النحوية أو التركيبية.

المراجع

رجع الكاتب إلى عدد كبير من المراجع، إلا أنه يلاحظ أن المراجع جاءت ثانوية (كتب)، كما تفتقر إلى التنوع.

مكتبة السودان بجامعة الخرطوم

قاسم عثمان نور

مدخل

تتبع مكتبة السودان لمكتبة جامعة الخرطوم، تلك المكتبة التي تأسست مع تأسيس كلية غردون التذكارية في عام (١٩٠٢م) والتي نشأت استجابة للنداء الذي أطلق عقب سقوط الخرطوم ووقوعها تحت سيطرة الحكم الثنائي (١٨٩٨- ١٩٥٥م). وقد كان ذلك من أجل تخليد ذكرى الجنرال شارلس غردون الذي قتل بالخرطوم إبان تحريرها بواسطة قوات المهدية (١٨٨٤- ١٨٩٨م). فتشكلت هيئة ببريطانيا لجمع التبرعات من أجل تخليد ذكراه، والتي قررت بناء مدرسة ابتدائية على ضفة النيل الأزرق الجنوبية لقبول التلاميذ من كل أنحاء البلاد القادمين من المدارس الأولية القليلة – حيث لم يتجاوز عدد المقبولين في ذلك الوقت عن أربعين طالباً. ثم أضيف إليها قسم ثانوي (المدارس العليا)، وكان الهدف الأساسي من قيامها، مد الإدارة الحكومية بأعداد من الموظفين (كتبة ومحاسبين ومترجمين ومعلمين، إلخ)، إذ كانت الوظائف الإدارية الوسطى في ذلك الوقت وقفاً على المصريين والشوام، وكانت الوظائف الدنيا من نصيب الوطنيين.

تحولت المدارس العليا بعد ذلك إلى كلية الخرطوم الجامعية[١] وأضيفت لها مدرسة كتشنر الطبية، ومدرسة القانون، ومدرسة أخرى للعلوم البيطرية،

(١) كلية الخرطوم الجامعية: في عام ١٩٤٨م تم ترفيع المدارس العليا التابعة لكلية غردون التذكارية إلى ما عرف بكلية الخرطوم الجامعية – والتي تطورت فيما بعد وأصبحت عقب استقلال البلاد في ١٩٥٦م "جامعة الخرطوم".

وتم ربطها بجامعة لندن للحصول على شهادة جامعة لندن في بعض العلوم مثل الآداب. وعند إعلان استقلال البلاد في عام ١٩٥٦م وصدور قانون جامعة الخرطوم أصبحت جامعة الخرطوم أوَّل جامعة وطنية بالبلاد ومن ثم توسعت وتنوعت فيها الكليات والأقسام.

وطوال تلك السنوات كانت المكتبة تمثل إحدى المؤسسات الداعمة للعملية التربوية، وصاحبت تطور تلك الفصول والأقسام والكليات كماً وكيفاً. فمن غرفة واحدة كانت تحتلها في مبنى كلية غردون التذكارية (سيشار إليها في هذا الملف بـ"الكلية") الذي بني في شكل المربع الذي ينقصه الضلع الرابع تطورت لتحتل كل المبنى الذي خُصِّص ليستوعب كل الكلية القديمة (فصول ومكاتب وداخليات الطلاب) بطابقيه الأرضي والأول، ماعدا الجناح الشرقي الذي يشغله قسم الفيزياء حالياً.

منشأ المكتبة

وفي عام ١٩٤٥م أهدى السير دوقلاس نيوبولد،[٢] السكرتير الإداري لحكومة السودان (١٩٣٩ - ١٩٤٥م)، مجموعته الخاصة ومجموعة مكتب السكرتير الإداري إلى مكتبة الكلية، وبلغ عدد مجلداتها حوالي ثلاثة آلاف مجلد

(٢) السير دوغلاوس نيوبولد (١٨٩٤- ١٩٤٥م): تخرج من جامعة أكسفورد البريطانية والتحق بالعمل بحكومة السودان في وظيفة مساعد مفتش مركز في عام ١٩٢٠م – وعمل مديراً لمديرية كردفان ثم تولى منصب السكرتير الإداري (١٩٣٨- ١٩٤٥م) كان من أميز الإداريين البريطانيين الذين عملوا بالسودان وحتى بالنسبة للبريطانيين في المستعمرات الأخرى. ولعل ولع واهتمام السير دوغلاس والذي اشتهر وعرف باطلاعه الواسع وحبه وعشقه للثقافة والقراءة – وكان واحداً من أكثر الإداريين البريطانيين الذين قدر لهم أن يبنوا علاقات وطيدة مع المثقفين السودانيين ومع زعماء ورؤساء العشائر. وتشهد له رسائله وكتاباته ومحاضراته بدار الثقافة بالخرطوم والتي سعى لتأسيسها ==

– وقد أطلق على مكتبة الكلية "مكتبة نيوبولد". وحوت تلك المجموعة الكثير من كتب السودان.

ولكن نواة تلك الكتب والتقارير تشكلت وتكونت بالقاهرة، وبالتحديد في تلك الوحدة التي أنشأها الرائد ريجالند ونجت[٣] والذي أصبح فيما بعد حاكماً عاماً للسودان (١٩٠٠– ١٩١٦م). وقد كان ذلك عندما كان ضابطاً في الجيش المصري (١٨٨٣م)، وقد اختير ليؤسس قلم المخابرات، والذي أوكل إليه جمع المعلومات والأخبار عن أوضاع السودان توطئة لغزوه فيما يعرف في التاريخ بـ "حملة النيل" عام ١٨٩٨م بقيادة الجنرال كتشنر.[٤]

= = وأشرف عليها واهتم بتزويدها بالكتب والمؤلفات . وفي الكتاب الذي حرره المستر هندرسون (مدير مديرية دار فور ١٩٥٢م) تحت عنوان "The making of the modern Sudan" عن حياة ومراسلات السير دوغلاس نيوبولد والذي ترجم مؤخراً إلى اللغة العربية "تحت عنوان كيف أعد السودان الحديث: حياة ومراسلات السير دوغلاس نيوبولد (الجزء الأول والثاني) ترجمة الأستاذ محمود صالح عثمان صالح، ومن إصدارات مركز عبد الكريم ميرغني بأم درمان (٢٠٠٩م). ويكشف الكتاب الوجه الآخر لحياة نيوبولد والدور الذي لعبه في مستقبل السودان الثقافي والسياسي.

(٣) فرانسيس ريجالند ف. ونجت (١٨٦١– ١٩٥٣): تخرج من الأكاديمية العسكرية الملكية في ولش. بدأ حياته العملية بالخدمة في قوات المشاة الملكية ثم خدم مع القوات البريطانية في عدن والهند وفي عام ١٨٨٣م. التحق بالجيش المصري وترقى لدرجة مدير المخابرات العسكرية المصرية، وعمل على جمع المعلومات عن السودان والثورة المهدية توطئة لغزو السودان، وهو الأمر الذي كانت تخطط وتسعى له بريطانيا. ورافق حملة النيل وكان سكرتيراً وأركان حرب لقائدها الجنرال كتشنر، وكان يعتبر العقل المدبر الذي وضع أسس وقواعد العمل العسكري والإداري لحكومة ما كان يعرف ب–"السودان الإنجليزي المصري".

(٤) الجنرال كتشنر، هـ. هوبرت (١٨٥٠– ١٩١٦م) من مواليد ايرلندا. التحق بفرقة المهندسين الملكية البريطانية (١٨٧٠م) وعمل بفلسطين وقبرص. في عام ١٨٨٢م التحق بالجيش المصري بقلم المخابرات. اختير قائداً لحملة النيل ١٨٩٨ وهزم قوات المهدية في موقعة كرري (أم درمان) في ٢ سبتمبر ١٨٩٨م، من ثم أصبح أول حاكم عام للسودان (١٨٩٩– ١٩١٦م).

استطاع ونجت خلال تلك الأعوام التي سبقت الغزو وتحرك الجيوش، أن يجمع الكثير من التقارير والخرائط والكتابات توطئة للغزو والمساعدة على تهريب بعض الأجانب من الذين كانوا أسرى بأم درمان، منهم الضابط النمساوي سلاطين باشا[٥] والذي وضع كتاباً فيما بعد أسماه "السيف والنار في السودان". كما خطط وأشرف على هروب القس أورهارد[٦] والذي أصدر أيضاً كتاباً بعنوان "عشر سنوات من الأسر في معسكر المهدي"، وقام ونجت بترجمته من الألمانية إلى الإنجليزية.

وبعد غزو السودان ١٨٩٨م ودخول الجيش الغازي بقيادة الجنرال كتشنر جاء الضابط ونجت مساعداً وسكرتيراً خاصاً للقائد- وجاء حاملاً معه معظم محفوظات مكتب المخابرات بالقاهرة من كتب ومخطوطات وخرائط وتقارير ووثائق. عقب معركة كرري وسقوط مدينة أم درمان وهزيمة جيوش المهدية وانسحاب الخليفة عبد الله وقادة المهدية نحو الغرب ومقتله فيما بعد في موقعة

(٥) سلاطين باشا (١٨٥٧- ١٩٣٢م): هو رودلف فون سلاطين وأطلق عليه اسم عبد القادر ولقب بـ (شوطين). نمساوي جاء السودان سائحاً في عام ١٨٧٤م وعينه الجنرال غردون مفتشاً للمالية عام ١٨٧٩م ثم حاكماً على مديرية دارفور عام ١٨٨١م. بعد اندلاع الثورة المهدية واستسلام حاميته أعلن إسلامه وانضمامه لقوات المهدية. وبعد وفاة الإمام المهدي وتولى الخليفة عبد الله زمام أمر الدولة، ظل ملازماً لمجلس الخليفة عبد الله، ولم يكن أسيراً مثل بقية الأسرى، وظل ثلاثة عشر عاماً بأم درمان حتى تمكن من الهرب إلى مصر بتخطيط من مخابرات الجيش المصري بقيادة ونجت. ووضع بعد ذلك كتابه "السيف والنار في السودان".

(٦) أورهارد، جوزيف (٩٩- ١٩١٢م): قسيس نمساوي يتبع للكنيسة الكاثوليكية. جاء مع المبشر كمبوني ومع اثنين من الرهبان للعمل بالتبشير في السودان، وقد عمل بمناطق جنوب كردفان وجبال النوبة. تم أسره إبان قيام الثورة المهدية وهرب لمصر ووضع كتاباً عن أيامه في أم درمان "عشر سنوات من الأسر بمعسكر المهدي ١٨٨٢- ١٨٩٢م)".

أم دبيكرات، قام ونجت بتكليف مجموعة من الموظفين المصاحبين للحملة، وفي مقدمتهم نعوم شقير[٧] (المؤرخ فيما بعد)، بجمع الوثائق والسجلات والدفاتر من المؤسسات الرسمية للمهدية (بيت المال - مطبعة الحجر) ومن منازل الخليفة عبد الله وقادة الأنصار.

مجموعة السكرتير الإداري

تلك الوثائق والمخطوطات التي توزعت فيما بعد ما بين مكتب محفوظات السودان – والتي صارت فيما بعد دار الوثائق المركزية (١٩١٦م) - وبين مكتب الحاكم العام، نقلت فيما بعد إلى مكتب السكرتير الإداري بعد استقرار الحكم في البلاد. وقد أبدى الإداريون البريطانيون الذين تعاقبوا في منصب السكرتير الإداري اهتماماً بتنمية تلك المجموعات والحرص على الحصول على نسخ من الكتب التي تصدر عن السودان بالخارج، بالإضافة إلى حصولهم على نسخ من كل المطبوعات الحكومية، خاصة التقارير السنوية التي تصدر عن مديري المديريات ومديري المصالح الحكومية، والتي كانت تشكّل المرجعية الأولى للتقرير السنوي الذي يصدر من الحكومة، ويعرف بـ"التقرير الإداري والمالي لحكومة السودان".

ويمكن القول بأن مجموعة مكتب السكرتير الإداري قد مثلث العمود الفقري لمجموعة السودان، مما حدا بالمسؤولين بمكتبة الكلية من تخصيص مكان

(٧) نعوم شقير: من الإداريين الذين عملوا بمكتب المخابرات. وقد جاء مرافقاً لونجت في حملة النيل، وتمكن من جمع وثائق المهدية التي كانت محفوظة في عدد من المنازل والدور. وضع فيما بعد كتاب "جغرافية وتاريخ السودان" ظهرت طبعته الأولى في عام ١٩٠٦م. وقد ضمن الكتاب العديد من الوثائق والمنشورات، وخاصة في فترة المهدية.

منفصل للمجموعة، بالمكتبة الرئيسية. وقد أبدى أمين المكتبة البريطاني، المستر جولف، أيضاً اهتماماً بهذه المجموعة، حيث تم تصنيفها وفهرستها لتصبح "مجموعة السودان". وفي الوقت ذاته حرصت إدارة المكتبة على متابعة الحصول على المطبوعات الحكومية، خاصة تلك المطبوعات الدورية التي تصدرها الوزارات والمصالح والمؤسسات الحكومية، إضافة إلى الحرص على الحصول على المطبوعات التي تصدر عن السودان بالخارج.

تأسيس قسم السودان

انتقل الأستاذ عبد الرحمن النصري من شعبة الجغرافيا بكلية الآداب بجامعة الخرطوم للعمل بالمكتبة وابتعث للمملكة المتحدة للحصول على درجة الماجستير في علوم المكتبات من جامعة لندن. عقب عودته للبلاد في عام ١٩٦٠م وتعيينه أميناً لمكتبة جامعة الخرطوم، قرر تأسيس قسم السودان، فعمل على ترحيل المجموعة إلى غرفة مستقلة أصبحت تعرف بـ"مكتبة السودان". لقد بذلت إدارة المكتبة جهداً مقدراً في استكمال المجموعات من المطبوعات الحكومية والسعي للحصول على مجموعات من المجلات السودانية والصحف اليومية والمخطوطات والأوراق والتقارير، وثم وضع فهرس خاص للمكتبة.

قُدِّر لكاتب هذه السطور، بعد التحاقه بالعمل بمكتبة جامعة الخرطوم في عام (١٩٦٢م)، أن يُنقل للعمل بمكتبة السودان. فظل بهذا القسم طوال الفترة من عام ١٩٦٥ حتى عام ١٩٨٠م، وخلال تلك الفترة شهدت المكتبة أكبر توسع لها، وخاصة في منتصف السبعينيات عندما حصلت المكتبة على منحة من مؤسسة روكلفر بلغت حوالي عشرين ألف دولار خصصت لشراء مجموعات السودان. وقد أمكنت هذه المنحة الحصول على كتب ومؤلفات باللغتين الإنجليزية والعربية، وبخاصة الطبعات القديمة والنادرة، بالإضافة إلى مخطوطات ومجموعات من

الصحف والمجلات، بما في ذلك شراء نسخ إضافية من الطبعات الباكرة والنادرة والتي تم حفظها لتكون نسخاً احتياطية للمستقبل. وكان وكيل المكتبة بالمملكة المتحدة (مؤسسة بلاكولز) تحتفظ بأوامر مستديمة Standing orders لشراء كل ما يصدر عن السودان بالخارج.

قانون إيداع المصنفات

ساعد صدور قانون إيداع المصنفات[٨] لعام ١٩٦٦م وتعديله في عام ١٩٧١م في إثراء المكتبة بالمؤلفات والمطبوعات الحديثة، كما بُذل جهد محلي للحصول على المؤلفات السودانية من الناشرين المحليين والمؤلفين وباعة الكتب داخل السودان؛ وأذكر أنه قد خُصِّص يوم في الأسبوع للمرور على المطابع ودور النشر المحلية والوزارات والمصالح للحصول على كتب الإيداع، وعلى التقارير والمطبوعات التي تصدر عن الوزارات والمصالح والمؤسسات الحكومية، والتي نحرص على مخاطبتها ومطالبتها بصورة منتظمة بمطبوعاتها وإصداراتها.

أذكر كنا نحرص على حضور الجلسة الأولى من المؤتمرات والندوات التي تعقد داخل السودان للحصول على نسخة من أوراق تلك المؤتمرات. استطاعت المكتبة أن تحتفظ بمجموعات من بعض الصحف اليومية بصورة منتظمة، وكذلك الحصول والمتابعة للنشرات الإخبارية مثل "نشرة وكالة الخرطوم" والتي

(٨) صدر قانون إيداع المصنفات في إصداره الأول في عام ١٩٦٦م والذي أمر بإيداع ثلاث نسخ من كل مطبوع يصدر في السودان في ثلاثة مراكز: مكتبة جامعة الخرطوم، ودار الوثائق المركزية، ومكتبة أم درمان المركزية. عُدِّل القانون فيما بعد (١٩٧٤م) ليشمل عدداً أكبر من المراكز. وبعد قيام المكتبة الوطنية وصدور قانونها في عام (١٩٩٩م) تم تعديل قانون إيداع المصنفات ليشمل المكتبة الوطنية بجانب تلك المكتبات.

تصدر يومياً مع ملخص أسبوعي، ويتم تجليدها شهرياً في مجلدات ما زالت تحتفظ بها المكتبة وتمثل مصدراً مهماً للأحداث اليومية في السودان خلال تلك الأعوام.

الفهرس المصنَّف

في عام ١٩٧١م صدر عن المكتبة "الفهرس المصنف لمجموعة السودان"،(٩) ويضم بطاقات فهارس مكتبة السودان تمت معالجتها وتنظيمها وتصويرها بقسم التجليد لتصدر في مجلد واحد. قدم له الأستاذ عبد الرحمن النصري. فجاء هذا الفهرس بمثابة "ببليوغرافية وطنية راجعة"؛ وقد صدرت لاحقاً ثلاثة ملاحق لهذا الفهرس ثم توقفت تلك الملاحق عن الصدور منذ عام ١٩٨٤م.

مكتبة السودان ووظيفة المكتبة الوطنية

رغم أن السودان قد شهد قيام مكتب المحفوظات الحكومية في عام ١٩١٦م، والذي تطور فيما بعد ليصبح دار الوثائق المركزية ثم دار الوثائق القومية. وكذلك شهد قيام المتاحف الأثرية والطبيعية والتي توجت بقيام المتحف القومي وقيام وتأسيس مؤسسات وطنية مشابهة. ولكن لم يشهد السودان في ذلك الوقت قيام مكتبة وطنية تتولى حفظ الإنتاج الفكري السوداني. ومع ذلك فقد ورد في محاضر مؤتمر الخريجين لعام ١٩٤٢م الدعوة لقيام "مكتبة

(٩) الفهرس المصنَّف لمجموعة السودان بمكتبة جامعة الخرطوم:
Classified catalogue of the Sudan Collection. Khartoum: University of Khartoum Library, 1970

للدراسات السودانية" وخُصِّص لها مبلغ من المال لإنشائها، ولكن مع ذلك لم نشهد لها أثراً. كما تأسست في مطلع الخمسينيات مكتبة أم درمان المركزية التابعة لوزارة المعارف السودانية، وكانت بمثابة مكتبة عامة.

وفي غياب المكتبة الوطنية تولت مكتبة السودان بجامعة الخرطوم القيام بهذا الدور في حفظ الإنتاج الفكري السوداني في مجال المطبوعات والمؤلفات السودانية أو تلك التي كتبها أجانب عن السودان، وإتاحتها للباحثين والراغبين من داخل وخارج الجامعة. وقد وضعت الضوابط التي تنظم عملية الاطلاع، وظلت مكتبة السودان تلعب هذا الدور المهم إلى يومنا هذا، وحتى بعد صدور قانون تأسيس المكتبة الوطنية (١٩٩٩م).[١٠]

ورغم أن اللوائح قد حددت استخدام مكتبة السودان أن تصبح وقفاً على طلاب الدراسات العليا إلا أن العقود الأخيرة قد شهدت زيادة ملحوظة في إعداد أولئك الطلاب بالإضافة إلى الباحثين من خارج هذه الفئة مما شكل عبئاً ثقيلاً على المكتبة. مما أدى إلى نقل المكتبة من مباني المكتبة الرئيسية إلى مبنى منفصل على شارع الجمهورية وهو مكون من طابقين وذلك لاستغلاله في حفظ المجموعات المتمثلة في الكتب والدوريات والمطبوعات الحكومية والرسائل الجامعية، بالإضافة إلى قاعة للمطالعة ومكاتب للعاملين.

(١٠) صدر قانون تأسيس المكتبة الوطنية في عام ١٩٩٩م، وقد سبق صدور القانون تكوين عدد من اللجان الفنية التي درست قيام المكتبة وأصدرت توصياتها بأهمية وضرورة قيام مكتبة وطنية بالسودان. وبعد إجازة القانون تم تكوين مجلس إدارة للمكتبة وأمين عام لها بالإنابة. كما تم إيجار مقر مؤقت لها واختيار مجموعة من أمناء المكتبات للعمل بأقسامها المختلفة، كما تم مؤخراً منح قطعة أرض في موقع مميز بالخرطوم على شارع النيل.

وقد انعكس الاستخدام لتلك المراجع أن تعرضَّت المجموعات للتلف وخاصة تلك المطبوعات والتي مضى على طباعتها أكثر من قرن، حيث أثرت عوامل الطبيعة على نوعية الورق، مما عرض الكثير منها للتمزق والتكسر تحت أصابع الباحثين!!

مجموعات السودان

وهي مجموعة المواد المكتبية التي تحتفظ بها مكتبة السودان والتي ورثتها بداية من مجموعات مكتب السكرتير الإداري لحكومة السودان، ثم مواصلة المكتبة لبناء تلك المجموعات والحرص على تطويرها وإكمال الناقص منها؛ وقد شملت المجموعات التالية:

١- المطبوعات الحكومية.

٢- الدوريات: الصحف والمجلات.

٣- الكتب والكتيبات والنشرات.

٤- أوراق المؤتمرات.

٥- القصاصات الصحفية.

٦- الرسائل الجامعية.

٧- مصغرات فلمية.

٨- صور فوتوغرافية.

٩- نسخ مصورة.

١٠- خرائط.

المطبوعات الحكومية

أ) تقارير الإدارة السياسية الاقتصادية

١- الأهلَّة والتقاويم: تقويم السودان (Sudan Almanac) والذي صدر باللغة الإنجليزية منذ عام ١٩١٠م، وبدأ بالصدور باللغة الإنجليزية والعربية منذ العام ١٩٦٢م حتى توقف بعد ذلك. وكان يصدر من مكتب الاستعلامات المركزي ثم وزارة الثقافة والإعلام.

٢- تقرير عن الحالة المالية والإدارة بالدولة. Report on the Finance Administration and Condition of the Sudan 1902- 1955.

٣- التقرير الشهري لحكومة السودان: فقد كان يصدر شهرياً ابتداء من الرقم (١) والذي صدر في عام ١٩٢٩م وحتى الرقم (٣٣٧) في عام ١٩٥٩م (باللغة الإنجليزية حتى عام ١٩٥٨م)

٤- تقرير مجلس الحاكم العام يغطي الجلسات من الجلسة رقم (١) إلى الجلسة رقم (٤٤٩)، ١٩١٠- ١٩٣٧م (باللغة الإنجليزية).

٥- المجلس الاستشاري لشمال السودان ١٩٤٥- ١٩٤٨م (المداولات والوقائع - باللغتين العربية والإنجليزية).

٦- الجمعية التشريعية (١٩٤٨- ١٩٥٢م)، الملخص الأسبوعي (باللغتين العربية والإنجليزية)

٧- البرلمان الأول (١٩٥٤- ١٩٥٨م): مجلس الشيوخ ومجلس النواب، المداولات والملخصات (باللغتين العربية والإنجليزية)

٨- المجلس المركزي (١٩٦٣- ١٩٦٤م): جداول الأعمال، وسجل الأعمال، ووقائع الجلسات، وبيانات الوزراء – ملخص المداولات (باللغتين العربية والإنجليزية)

٩- الجمعية التأسيسية (الأولى) ١٩٦٥- ١٩٦٨م - المحاضر والملخصات

١٠- الاتحاد الاشتراكي السوداني ١٩٧٢- ١٩٧٤م: وثائق ومداولات المؤتمرات

١١- مجالس الشعب (١٩٧٤): وقائع الجلسات والبيانات.

١٢- تقارير الوزارات والمصالح الحكومية: وهي مجموعة التقارير السنوية التي تصدرها الوزارات والمصالح الحكومية المختلفة مثل: وزارة الشؤون الاجتماعية، ووزارة الإعلام، ومصلحة العمل، ووزارة الاستعلامات، وزارة الأشغال، شركة النور، والنقل الميكانيكي، والسكة حديد، والإرصاد الجوي، ومصلحة البريد والبرق، ومصلحة التعاون، ومصلحة الإحصاء، ووزارة المالية، وبنك السودان، والبنك الزراعي، والبنك الصناعي، ووزارة الزراعة، ومشروع الجزيرة، والغابات، وهيئة توفير المياه، ومصلحة الجيولوجيا، والمساحة، ووزارة الري، ومصلحة المعارف، ووزارة الصحة، ومعامل وِلْكَم، ومصلحة الآثار والمتاحف، وجامعة الخرطوم، والغرفة التجارية، ومعهد الإدارة العامة، جامعة أم درمان الإسلامية وغيرها. وتتضمن تلك التقارير والإصدارات كتيبات ونشرات من كل وحدات تلك الوزارات، منها:

- مجموعات ميزانية حكومة السودان منذ عام ١٩٠٥م.
- جداول مواعيد القطارات والبواخر النيلية.
- دليل التلفونات للعاصمة والأقاليم.
- كتيبات ونشرات متخصصة.

ب) تقارير المديرية

وهي تقارير شهرية تصدر عن مديري المديريات بالسودان والتي يبلغ عددها ثماني مديريات وتشمل مديريات : بحر الغزال- النيل الأزرق – دارفور – الاستوائية – كسلا – الخرطوم- كردفان- الشمالية- أعالي النيل. وظلت تصدر بصفة منتظمة منذ عام ١٩٤٠م وبعد تكوين المجالس البلدية والريفية كانت هناك أيضاً تقارير دورية محفوظة بالمكتبة لمجموعة من تلك المجالس.

ج- تقارير المخابرات

المجموعة الأولى: Intelligence Report NOS. 1- 11، من أبريل ١٨٩٢م حتى أكتوبر ١٩٠٣م (نسخة مصورة)

المجموعة الثانية: من رقم ٥١ إلى رقم ٣٦٥ (١٨٩٧- ١٩٢٤م) صادر بلندن باللغة الإنجليزية فقط.

د- غازيته حكومة السودان (Sudan Government Gazette)

من الإصدارة الأولى (رقم ١) ١٨٩٩م وحتى عام ١٩٥١م، وتصدر باللغة الإنجليزية فقط. ومنذ عام ١٩٥٢م كانت تصدر طبعة أخرى باللغة العربية، وهي مستمرة بصورة منتظمة حتى يومنا هذا.

هـ - القوائم الخاصة

قائمة أعضاء السلك الدبلوماسي، وتصدر منذ عام ١٩٥٧م (سنوياً)، ومنذ العام ١٩٦٢م تصدر باللغتين العربية والإنجليزية.

الدوريات والصحف والمجلات والنشرات

١- مجلة السودان في رسائل ومدونات (*Sudan Notes and Records*): وهي المجلة التي تصدرها الجمعية الفلسفية[١١] منذ عام ١٩١٨م وقد كان الحاكم العام رئيساً لمجلس إدارتها. وقد بدأت هذه المجلة بنشر المقالات والتقارير العلمية التي يكتبها البريطانيون العاملون في الإدارة الحكومية عن المناطق والقبائل والنشاطات الاجتماعية والزراعية والعادات والتقاليد والآثار، ولكنها أخذت طابع الكتابة العلمية، مما جعلها واحدة من المراجع الأساسية في الدراسات السودانية. واستمرت تصدر بصورة منتظمة حتى استقلال البلاد في عام ١٩٥٦م، وعندما تمت السودنة واصل الأساتذة السودانيون العمل بالمجلة والمحافظة على المستوى العلمي لها. وظلت المجلة تحت رعاية ومظلة جامعة الخرطوم، وما زالت تصدر إلى يومنا هذا وإن كانت قد أخذت أرقاماً متسلسلة جديدة. ولكنها ظلت محافظة على تراثها وتقاليدها الأكاديمية والبحثية ومكانتها المرجعية في مكتبات ومراكز البحوث بالداخل والخارج. تتبع لرئاسة الجمهورية وتصدر تحت مظلة معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، ويقوم بتحريرها البروفيسور يوسف فضل حسن، وما زالت تصدر باللغة الإنجليزية (فقط) حتى يومنا هذا.

(١١) الجمعية الفلسفية (Philosophical Society): من أوائل الجمعيات العلمية التي تأسست في السودان في فترة الحكم الثنائي بالبلاد. وقد كان رئيسها الحاكم العام البريطاني، ويمثل الإداريون البريطانيون ومديرو المديريات ومفتشو المراكز والفنيون العاملون بالمصالح المختلفة الأعضاء الممثلين لجمعيتها العمومية. وقد اهتمت الجمعية ومنذ قيامها بمناقشة القضايا التي تهم المجتمع. وقد أصدرت الجمعية مجلتها *SNR* في عام ١٩١٨م، ما زالت تصدر إلى اليوم.

٢- الصحف والمجلات: تحتفظ المكتبة بمجموعات صغيرة من الصحف اليومية فمن ذلك مجموعة جريدة الصراحة[١٢] والتي حصلت عليها من مؤسسها الأستاذ عبد الله رجب. كما ولدى المكتبة مجموعة من جرائد الأيام،[١٣] والصحافة،[١٤] والرأي العام.[١٥] أما في مجال المجلات، فتحتفظ المكتبة بكل المجلات الأكاديمية التي صدرت عن جامعة الخرطوم منذ مجلة "الكلية"[١٦] العدد الأول الصادر في عام ١٩٥٢م، ثم المجلات التي صدرت من الكليات

(١٢) صحيفة مستقلة تصدر بالخرطوم ، مؤسسها ورئيس تحريرها عبد الله رجب صدر العدد الأول منها في أول يناير ١٩٥٠م بواقع ثلاثة أعداد في الأسبوع، ثم أصبحت تصدر يومياً حتى تاريخ توقفها في ٣١ أغسطس ١٩٦١م، صدر خلالها ١٩٩٠ عدداً.

(١٣) صحيفة يومية سياسية، صاحب الامتياز شركة الأيام للطباعة والنشر بالخرطوم توالى على رئاسة تحريرها الأساتذة بشير محمد سعيد ومحجوب محمد صالح ومحجوب عثمان. صدر العدد الأول في ٣ أكتوبر ١٩٥٣م توقفت بعد التأميم في نوفمبر ١٩٧٠م ثم عاودت الصدور في فترات لاحقة وما زالت تصدر إلى يومنا هذا.

(١٤) صحيفة مستقلة، صاحب الامتياز ورئيس التحرير هو عبد الرحمن مختار. صدرت بالخرطوم في عام ١٩٥٨م، وتم تأميمها في عام ١٩٧٠م، واستمرت في الصدور حتى توقفها في عام ١٩٨٥م، ثم واصلت الصدور فيما بعد.

(١٥) صحيفة يومية سياسية مستقلة، صاحب الامتياز ورئيس التحرير هو إسماعيل العتباني. صدر العدد الأول منها في مارس ١٩٤٥م، وثم تأميمها في عام ١٩٧٠م، وأصبحت تصدر كمجلة أسبوعية خلال الفترة ١٩٧٠- ١٩٧٣م. ثم عاودت الصدور مرة أخرى كصحيفة يومية سياسية مستقلة في سبتمبر ١٩٩٦م، وآل الامتياز إلى علي إسماعيل العتباني، ومستمرة في الصدور إلى الآن.

(١٦) مجلة كلية غردون، نصف سنوية ثم سنوية، صدرت عن كلية غردون التذكارية في مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي، حيث صدر العدد الخامس من المجلد الأول في مايو ١٩٣٤م. ثم تغير العنوان إلى "الكلية"، وأصبحت تصدر عن كلية الخرطوم الجامعية سنوية، ثم نصف سنوية. وقد صدر منها خلال الفترة ١٩٥٢- ١٩٥٥م سبعة أعداد. وبعد استقلال السودان وصدور قانون جامعة الخرطوم في عام ١٩٥٦م صدرت باسم "الجامعة".

والجمعيات العلمية وجمعيات الطلاب. بجانب ذلك تحتفظ المكتبة بمجموعة المجلات الثقافية التي صدرت بالسودان، ابتداء من مجموعة مجلة النهضة السودانية ١٩٣١- ١٩٣٢م ومجموعة الفجر (١٩٣٤- ١٩٣٩م). وحرصت على أن تكون مجموعاتها مكتملة ومجلدة. كما حصلت المكتبة على المجموعة الكاملة من "مجلة الصبيان" من العدد الأول منها ومجلة "هنا أم درمان" من العدد الأول منها. ويمكن القول بأن مجموعة السودان في مجال المجلات العلمية والثقافية والأدبية تعتبر مجموعة متميزة.

أوراق المؤتمرات

تضم مكتبة السودان مجموعة من المؤتمرات العلمية ولعل من أشهرها:

- مؤتمرات الجمعية الفلسفية: مثل مؤتمر الأبحاث في السودان (الغذاء والمجتمع والتعليم وغيرها) والتي كانت تعقد بانتظام منذ الخمسينيات من القرن الماضي. (باللغة الإنجليزية).
- مؤتمرات أركويت الباكرة منذ العام ١٩٤٨.
- المؤتمرات التي درج معهد الدراسات الإضافية على عقدها سنوياً، وكان أولها عن "الصناعة في السودان" ١٩٦٧م.
- مؤتمرات معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية في مجال "الدراسات السودانية" والتي درج المعهد على عقدها كل عامين ودعوة عدد من الباحثين والعلماء من داخل وخارج البلاد للمشاركة بأوراق علمية في أيَّ موضوع من الموضوعات التي يختارها.

هذا، إضافة إلى الحرص على الحصول على أوراق المؤتمرات العلمية التي تعقدها الجمعيات والمؤسسات والتي تشكل اليوم مجموعة طيبة.

القصاصات الصحفية

وهي مجموعات من القصاصات الصحفية تتناول أحوال وأخبار السودان، وهي من المجموعة التي ورثتها المكتبة من مكتب السكرتير الإداري ومحفوظة داخل صناديق خاصة ولم تُعَد لها كشافات حتى اليوم. وجميعها باللغات الأجنبية ومعظمها باللغة الإنجليزية.

الصور الفوتوغرافية

وهي مجموعات من الصور الفوتوغرافية، والتي كانت ضمن مجموعة السير دوغلاس نيوبولد، وتتضمن صوراً لمجتمعات محلية وقبلية من مديريات السودان المختلفة، وهي أيضاً محفوظة بتلك الصناديق الخاصة، ولكن يُخاف عليها من عوامل الطقس التي تؤثر على المواد الكيميائية. وهناك أيضاً مجموعة الأفلام المصغرة، وتضم مجموعات من الكتب النادرة ورسائل جامعية عن السودان بجامعات بريطانية وبعضاً من التقارير.

الرسائل الجامعية

تحتفظ المكتبة بالرسائل الجامعية التي أعدها سودانيون في الخارج، وخاصة بجامعات المملكة المتحدة، وبعضها في نسخ مصورة، وأخرى على أفلام مصغرة. ثم الرسائل الجامعية التي تمنحها جامعة الخرطوم بعد عام ١٩٥٧م وتأسيس كلية الدراسات العليا، وقد تضخم هذا القسم وأصبح اليوم يمثل قاعة كاملة. وقد تمكنت لجنة بروفسور النصري وبروفسور يوسف فضل والأستاذ عثمان حسن أحمد من وضع قائمة للرسائل الجامعية الباكرة، وذلك بدعوة من سكرتارية مجلس الوزراء في عام ١٩٧٤م. وقد تم إعداد مجلدين من تلك الرسائل، أرسلت النسخة الأولى إلى مجلس الوزراء والثانية تم حفظها

بمكتبة جامعة الخرطوم (مكتبة السودان أو مكتب أمين المكتبة). لقد شهدنا في الأعوام الأخيرة السيل الذي انهمر من الرسائل الجامعية على مكتبة السودان، واعتقد أن العدد قد فاق العشرة آلاف رسالة. وعليه لابد من إقامة مكتبة خاصة للرسائل الجامعية يُتولى الإشراف عليها بالاشتراك مع كلية الدراسات العليا.

الخرائط

تحتفظ المكتبة بمجموعات من خرائط السودان، والتي حصلت على بعضها ضمن مجموعة نيوبولد (وهي من الخرائط النادرة اليوم)، ومجموعات أخرى أمكن الحصول عليها من مصلحة المساحة. إذ أن المكتبة ظلت حريصة على مخاطبة مصلحة المساحة وملاحقتها بمدها بإصداراتها من الخرائط التي تصدرها على مختلف أشكالها وأنواعها.

الكتب

مجموعة كتب السودان، وهي التي تشكل العمود الفقري للمكتبة. فقد جاءت الدفعة الأولى منها من مجموعة نيوبولد ومجموعة مكتب السكرتير الإداري والتي شملت طباعات باكرة غطت مجالات واسعة وجميعها باللغات الأجنبية وبخاصة اللغة الإنجليزية.

القوائم الببليوغرافية

وجميعها باللغات الأجنبية (إنجليزية- فرنسية – ألمانية)، وتشمل:

- ببليوغرفيا الأمير إبراهيم حلمي (عن مصر والسودان) ١٨٨٥م - في مجلدين
- ببليوغرافيا ريتشارد هِلّ "السودان من أقدم العصور وحتى عام ١٩٣٧م".

- ببليوغرافيا عبد الرحمن النصري من ١٩٣٨- ١٩٥٨م.
- ببليوغرافيا أسماء إبراهيم والنصري من ١٩٥٩- ١٩٦٤م.
- "الفهرس المصنف لمجموعة السودان"، وصدر في عام ١٩٧٠م، وهو بمثابة ببليوغرافيا وطنية راجعة عن السودان. وتميز هذا العمل بأنه يشير إلى مراجع ومطبوعات موجودة ومحفوظة بمكتبة السودان، وصدرت فيه ثلاثة ملاحق ١٩٧٢/ ١٩٧٤/ ١٩٧٥م.
- ببليوغرافيا يوسف أسعد داغر[١٧] عن مراجع باللغة العربية والذي استفاد من فهارس مكتبة السودان في إصدار تلك القائمة عندما حضر للسودان خبيراً من اليونسكو لتأسيس مركز التوثيق التربوي بالخرطوم في عام (١٩٦٨م).
- سلسلة مصادر الدراسات السودانية لقاسم عثمان نور، الكتاب الأول – الرابع (١٩٣١- ١٩٨٥)، وصدر الكتاب الخامس في عام ٢٠١١م. وهو تكشيف للمقالات التي صدرت بالمجلات والدوريات السودانية ومجموعاتها، محفوظة بمكتبة السودان. وهذا الأمر يقودنا إلى أهمية قيام قسم خاص بالصحف والمجلات والمؤتمرات والصور بدلاً أن تظل مكدسة ومحفوظ بعضها داخل الدواليب ويصعب التعامل معها.

كتب الشخصيات

وهي عبارة عن كتب نادرة وقديمة، وتعتبر من أمهات مصادر الدراسات السودانية، منها:

(١٧) الأستاذ يوسف أسعد داغر لبناني الجنسية، خبير تربوي، انتدبته منظمة اليونسكو لوزارة التربية والتعليم بالسودان لتأسيس مركز التوثيق التربوي في عام ١٩٦٧م.

- قاموس ريتشارد هِلْ عن الشخصيات السودانية التي توفيت قبل عام ١٩٤٨م، ويحتوي على ١٩٠٠ شخصية. صدر بلندن في عام ١٩٥١- وطبعة ثانية في عام ١٩٦٧م.[١٨]

- قائمة السكرتير الإداري عن موظفي حكومة السودان ١٨٩٩- ١٩٢٩م، وهي قوائم توثيقية مهمة.

- كتاب نيوبولد عن السلطان علي دينار.

- كتاب طبقات ود ضيف الله لمؤلفه الشيخ محمد النور ضيف الله، طبعة إبراهيم صديق عام ١٩٣٠م، وطبعة منديل ١٩٣٠م. وبلغت الطبعات المحقَّقة للدكتور يوسف فضل حسن (١٩٧٠م) أكثر من ست طبعات.

- كتاب بابكر بدري: "تاريخ حياتي"، ٣ أجزاء، الخرطوم، مطبعة مصر ١٩٦١م.

- كتاب الدرديري محمد عثمان: "مذكراتي (١٩١٤- ١٩٥٨م)"، الخرطوم ١٩٦١م.

- كتاب سعد ميخائيل: "شعراء السودان، الطبعة الأولى ١٩٢٣م.

- كتاب سليمان منديل: "الرحلة السودانية الأوربية"، ١٩٢٤م.

- كتاب محمد أحمد محجوب وعبد الحليم محمد "موت دنيا"، طبعة أولى ١٩٤٦م.

(١٨) قام سيف الدين عبد الحميد النعيم بترجمته إلى العربية والتعليق على بعض المعلومات الواردة فيه، وقام الدكتور خالد فرح بعرضه في هذا المجلد (أنظر ص ١٣٣-١٤٣).

- كتاب أسفار محمد عثمان ميرغني في غرب إفريقيا وإنجلترا، ١٩٢٧م.
- كتاب يحيى محمد عبد القادر: "شخصيات سودانية"، ٣ أجزاء، ١٩٥٢/ ١٩٥٦م.

كتب الرحالة والرحلات

وهي مجموعة غنية بالطبعات الباكرة والنادرة للرحالة الذين زاروا السودان منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، ونشرت تلك الكتب باللغات الإنجليزية والألمانية والفرنسية. وكانت بدايات مجموعة السودان من المجموعة التي وصلت مع مكتبة نيوبولد ومجموعة السكرتير الإداري، وجميعها باللغات الأجنبية. فمن تلك الكتب على سبيل المثال:

- "رحلات أمري في مصر وبلاد النوبة" (١٨٦٨م)، بالفرنسية.
- "بريطانيا في السودان" ليعقوب باشا آرتن (١٩١١م)، بالإنجليزية.
- كتاب صمويل بيكر عن النيل وقبيلة الحمران (١٨٦٧م) بالإنجليزية.
- "رحلة في مصر وبلاد النوبة" (١٨٢١م) لمؤلفه بلزوني، بالفرنسية.
- "رحلات في إفريقيا" لوليم جورج براون (١٧٩٩م)، بالإنجليزية.
- "رحلات في بلاد النوبة" لمؤلفه جون لويس بوركهارد (١٨٢٢م)، بالإنجليزية.
- "رحلة إلى مروي" لمؤلفه فردريك كايو (٥ مجلدات) (١٨٢٦م)، بالفرنسية.
- "رحلتي الإفريقية" لونستون شيرشل (١٩٠٨م)، بالإنجليزية.
- "بحر النيل والصحراء" لجوزيف شاري (١٨٥٣م)، بالإنجليزية.

- "رحلة إلى السودان"، تأليف جونكر (١٨٧٩)، بالألمانية.
- "رحلات في إفريقيا"، تأليف جونكر (٣ مجلدات) (١٨٧٥م)، بالإنجليزية.
- "رحلات وسط إفريقيا" لجون بتريك (مجلدان) (١٨٦٩م).
- "زيارة إلى أجزاء من إثيوبيا"، تأليف جورج وادنقون وبرنارد هنبري (١٨٢٢م).
- "الحياة في السودان" تأليف جوسيا وليامز (١٨٨٤م).
- "رحلات لاكتشاف منابع النيل" لجميس بروس (٦ مجلدات) (١٧٩٠م).

مجال علم الآثار

في مجال الأبحاث الآثارية تحتوي المكتبة على تقارير البعثات الأثرية التي زارت السودان منذ قيام سد أسوان في عام ١٩٠٥م، وبدأت في إصدار تقاريرها الأثرية عن آثار بلاد النوبة وتقارير دنهام عن الكرو، ونوري، وإهرامات مروي، والمدافن الملكية، وجبانات مروي (٥ مجلدات) (١٩٥٠- ١٩٦٣م).

وفي هذا الإطار، هناك تقارير الحكومة المصرية – مصلحة المساحة حول مناطق النوبة (السودانية)، وهي:

- كتابات وتقارير قريفس ف.ل. عن الفترة المروية منذ العام ١٩١١م إلى ١٩٣٢م.
- تقارير هنتز ومكدام وكيروان ومكلوسكي وراندل- وريزنر وشيني.
- تقارير بعثة جامعة بنسلفانيا والتي أصدرت ثمانية مجلدات خلال الفترة (١٩٠٩- ١٩١١م) عن مسوحاتها واكتشافاتها بمناطق النوبة.

- تقارير مصلحة الآثار وبعثاتها الأثرية منذ كتابات آركل (الخرطوم القديمة- الشهيناب).

خلاصة القول، إن كتب المكتبة تشمل جميع مجالات الدراسات السودانية في مختلف العلوم والفنون باللغات الإنجليزية والعربية.

الأعمال الفنية

بدأت المكتبة في أول أمرها بفرز بطاقات الفهرسة عن بطاقات فهرس المكتبة الرئيسية، وأصبح هناك فهرس مستقل لمجموعة السودان. كما تم وضع رؤوس الموضوعات التي تغطي الموضوعات السودانية من أسماء الوزارات والمصالح إلى أسماء القبائل والمديريات والبلدان، وتخصيص أرقام تغطي كل ذلك التنوع في الموضوعات السودانية.

ما بين التصنيف القديم والجديد

كانت مكتبة السودان تستخدم تصنيف بليس، وهو تصنيف خاص مشتق من تصنيف (بليس) الذي كان مستخدماً بالمكتبة الرئيسية، والذي يبدأ بالرمز A8 وينتهي بالرمز 8Z مستوعباً كل مطبوعات وموضوعات السودان بتفاصيل دقيقة. وأظهر تفاصيل هذا التصنيف ما تكوَّن في قسم القبائل السودانية. إذ تأخذ كل قبيلة رمزاً خاصاً بها مكوَّناً من ٤-٥ حروف. ولكن في الآونة الأخيرة تم تحويل تصنيف مكتبة جامعة الخرطوم إلى تصنيف ديوي العشري، بما في ذلك مكتبة السودان، مما أربك العمل بالمكتبة، وليتهم أبقوا على التصنيف الأول، خاصة وأن الفهرس المصنف وملاحقه تعتمد في ترتيبها على التصنيف القديم.

فهرس المكتبة المصور

في عام ١٩٧٠م تم جمع وإعادة تنظيم وترتيب بطاقات فهرس السودان، وتم تصويرها بقسم التجليد بإمكاناته المتواضعة، حيث صدر المجلد الأول والذي يحتوي على أكثر من خمسمائة صفحة محتوياً كل بطاقات مكتبة السودان، والذي صدر تحت عنوان: "الفهرس المصنَّف لمجموعة السودان بمكتبة جامعة الخرطوم". وصدر الملحق الأول في عام ١٩٧١م، والثاني في عام ١٩٧٢م، والثالث في عام ١٩٧٤م، ثم توقف صدور الملاحق بعد ذلك.

مبنى وموقع المكتبة

خلال هذه الرحلة الممتدة من عام ١٩٤٧م إلى يومنا هذا انتقلت مكتبة السودان من المكتبة الرئيسية إلى مبنى مستقل احتل الجزء الجنوبي الغربي من الطابق الأول لمبنى المكتبة الرئيسية وشغل ثلاث غرف مع صندقة علوية لحفظ النسخ الإضافية وبعض مجلدات الصحف. بعد ذلك تم ترحيل المكتبة إلى مبناها الحالي بشارع الجمهورية لتحتل الجزء المواجه للشارع بطابقيه الأول والثاني (داخلية بحر الغزال سابقاً).

كانت المكتبة تسمح بدخول طلاب الدراسات العليا والاستفادة من نظام الأرفف المفتوحة للحصول على مطبوعاتهم على الرفوف، ما عدا الرسائل الجامعية والتي تكون دائماً مغلقة داخل الدواليب. أما طلاب المراحل الجامعية الأولى، فإنهم يطلبون الكتب عن طريق الإعارة الداخلية من المكتبة الرئيسية. رغم أن المكتبة مخصصة، وفقاً لقانون ولوائح المكتبة، لأساتذة وطلاب جامعة الخرطوم، إلا أنه يسمح للباحثين من خارج الجامعة بالدخول ولكن بعد الحصول على إذن خاص باستخدام المكتبة. والموقع الحالي بغرفه المحدودة

لا يسع محفوظات المكتبة. وتكدس المطبوعات ظاهر للعيان. وعلى المكتبة أن تتوسع في المبنى الحالي، وأن يتم ترحيل باقي الوحدات إلى مبنى آخر، وذلك لحين بناء مبنى مستقل للمكتبة فيما بعد، على أن يتم توزيع المكتبة إلى أقسام ووحدات لتخدم عدد القراء المتزايد. واقترح: ١- قسم للطبعات النادرة (كتب وتقارير)، ٢- قسم للصحف والدوريات، ٣- قسم للرسائل الجامعية، ٤- قسم للكتب والمطبوعات الحديثة، ٥- قسم للمواد الالكترونية، ٦- قسم للتجليد والصيانة. بالطبع إن هذا الأمر يتطلب موظفين وفنيين واختصاصيين لإدارة العمل بالمكتبة. وفي كل الحالات لم تكن الإعارة متاحة، وعلى الجميع استخدام المراجع داخل المكتبة فقط.

بعد ترحيل المكتبة إلى المبنى الجديد تقرر أن تخصص قاعة للمطالعة لكل الطلاب، وأن تتم مناولة المراجع بعد ترك الطالب أو المستفيد بطاقته بالكاونتر، مع وجود دفتر خاص للتوقيع للطلاب الذين يودون الاطلاع على رسائل جامعية (ماجستير –دكتوراه).

التجليد والترميم والصيانة

من الأعمال الفنية التي حرصت إدارة المكتبة عليها، عملية تجليد المطبوعات وترميمها وصيانتها. وقد أدى تجليد الكتب والتقارير إلى الاحتفاظ بتلك المؤلفات إلى يومنا هذا بصورة سليمة. وقد كان قسم التجليد بمكتبة جامعة الخرطوم يقوم بالعمل في تجليد المجموعات بصورة منتظمة ومستمرة حتى تم فيما بعد نقل القسم وإضافته إلى مطبعة الجامعة، مما أثر سلباً على مجموعات مكتبة السودان، وتراكمت المجموعات بشكل كبير. ورغم إعادة جزء من التجليد للمكتبة، إلا أن آثار تلك الفترة ما زالت قائمة.

القراءة الجائرة

ومن السلبيات التي تعاني منها المكتبة اليوم، الاستخدام المكثَّف للمراجع من داخل الجامعة ومن خارجها، وذلك نسبة لغياب المكتبة الوطنية وفشل معظم الجامعات في إنشاء أقسام للمؤلفات السودانية، مما زاد العبء على مكتبة السودان. وقد انعكس ذلك على الكتب بشكل واضح، وأصبح بعضها يتكسر بسبب عوامل الطبيعة التي أدت إلى جفاف الورق، وكثير من الطبعات النادرة إما فقدت أو في طريقها للفقدان. ولذلك لابد من معالجة الأمر بالسرعة المطلوبة بتصوير ونسخ الطبعات النادرة من كتب السودان وإتاحتها في شكل الكتروني أو فلمي أو نسخ مصوَّرة.

نقص التزويد

تنقص اليوم المكتبة مجموعات من المؤلفات السودانية الخاصة أو التي كتبت عن السودان حديثاً والتي لم تصل المكتبة، وذلك لقصور الميزانية وعدم الحصول على الطبعات والنسخ الجديدة. وإذا أردنا أن نعطي مثالاً، ففي قضية دارفور فقط صدر خلال خمس السنوات الماضية ما يزيد على ثلاثمائة كتاباً باللغات الأجنبية ما يوجد منها بمكتبة السودان اليوم قد يصل العشرة بالمائة. وقس على ذلك بقية القضايا والموضوعات.

وحتى بالنسبة للإنتاج الفكري الوطني الذي يصدر محلياً، فقد كانت المكتبة تقوم بشراء ثلاث نسخ من كل كتاب يصدره سوداني أو يصدر عن السودان أو أي من الموضوعات التي تدخل في نطاق اختصاص المكتبة. ولكن توقفت المكتبة ومنذ زمن، باستثناء الحصول على بعض الاختيارات، وليست كل المطبوعات، أو بعض المؤلفات التي تصلها عن طريق الإيداع القانوني من وقت

لآخر. وكذلك عدم حرص الناشرين والمؤلفين على إرسال نسخ الإيداع القانوني للمكتبة، مما أضعف من مجموعات المكتبة.

حوسبة المكتبة

لابد من حوسبة المكتبة والاستفادة من التقنية الحديثة في الحفظ والاسترجاع، وكذلك الحصول على أجهزة الماساحات الضوئية (الإسكنر) من أجل المحافظة على النسخ والطبعات النادرة بتصويرها وإتاحتها للباحثين. وهذا الأمر يتطلب اعتمادات مالية لتوفير الأجهزة والمعدات والقاعات، كذلك الكادر الفني المدرب للقيام بتلك الأعمال. وعلى المكتبة أن تعمل جاهدة على المحافظة على الموجود حالياً من المطبوعات، وأن تواصل أعمال التجليد والصيانة لتلك المطبوعات.

الفهارس والكشافات

تحتاج المكتبة لمراجعة شاملة وصيانة، خاصة المجموعات الباكرة من كتب وصحف وصور وغيرها من الوثائق. تضم المكتبة أكثر من خمسين صندوقاً تحتوي على وثائق وصور وأوراق؛ هذه الصناديق تحتاج إلى تكشيف ووضع فهارس تفصيلية لها، بما في ذلك المخطوطات. هذا بخلاف مخطوطات مكتبة التجاني الماحي. وتحتاج الصور الفوتوغرافية (صور وسوالب) إلى فرز ومعالجة وطرق حفظ حديثة للمحافظة عليها، والكثير منها قد مضى عليه أكثر من خمسين عاماً. وهذا يتطلب مبنى جديداً تراعى فيه متطلبات الأمان والحفظ السليم لوثائق وأوراق مضى عليها أكثر من قرن من الزمان، مع الاهتمام بالاستفادة من التقنية الحديثة في مجال الحوسبة والتصوير والحفظ حتى إتاحة المطبوعات النادرة على الشبكة العالمية (الانترنت)، وهو الأمر الذي تسير عليه اليوم معظم المكتبات في إتاحة مقتنياتها على الشبكة العالمية.

ذاكرة الوطن

لا شك أن مكتبة السودان بجامعة الخرطوم تمثل اليوم ذاكرة الوطن، والمحافظة على مجموعاتها من الواجبات الوطنية. فعلى إدارة الجامعة وإدارة المكتبة السعي لمخاطبة الجهات داخل وخارج السودان للمعاونة في حفظ ذلك الإرث الثقافي والتاريخي للإنتاج الفكري الوطني. وهي بلاشك أكبر وأغنى مكتبة عن السودان داخل السودان وخارجه؛ فمن واجبنا المحافظة عليها وتسليم الأجيال القادمة الأمانة.

قواعد وشروط النشر

مجلة الدراسات السودانية مجلة علمية محكّمة تصدر عن معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، وتقبل البحوث في كل مجالات العلوم الإنسانية ذات الصلة المباشرة بالسودان، إضافة إلى عرض الكتب المتعلقة بالسودان.

يرجى من مقدمي البحوث لهذه المجلة مراعاة الآتي:

١- ألا يكون البحث المقدم للمجلة قد نشر أو قدم للنشر في مكان آخر.

٢- تسلم نسخة ورقية مطبوعة على الحاسوب مع نبذة عن الكاتب، ونسخة في قرص مضغوط (CD) لرئيس أو سكرتير التحرير، أو ترسل عبر البريد الالكتروني على العنوانين التاليين:

abumanga1951@gmail.com أو mona.abubakr@gmail.com

٣- أن تكون صفحات البحث بين خمس عشرة وخمس وعشرين صفحة (بنط ١٦ Simplified Arabic مسافة واحدة بين السطور Single Spacing)، أو لا يتجاوز الـ ٧٠٠٠ كلمة. ويرفق معه مستخلص باللغتين العربية والإنجليزية في حدود ١٥٠ كلمة بكل لغة.

٤- أن يوثق البحث علمياً بذكر المصادر والمراجع التي اعتمدها الباحث في نهاية البحث، مع اتباع أحد المناهج الحديثة في ذلك، وتكتب الهوامش في نهاية البحث وفقاً للنماذج التالية:

كتاب

عون الشريف قاسم (١٩٨٩): الإسلام والعربية في السودان، دار الجيل، بيروت، ص...

Greenberg, J. (1966): *Languages of Africa*. The Hague: Mouton, p….

مقال في دورية

عشاري أحمد محمود (١٩٨٨): "أزمة اللسانيات في العالم العربي"، المجلة العربية للدراسات اللغوية، العدد الأول، ص ٣.

Hurreiz, S.H. (1978): "Arabic as a national and international language: Current problems and future needs", *West African Journal of Modern Languages* III, p. 13.

مقال أو فصل في كتاب

Qasim, Awn Sh. (1975): "Sudanese Colloquial Arabic in social and historical perspective", in *Directions in Sudanese Linguistics and Folklore*, ed. by S.H. Hurreiz & H. Bell. Khartoum: Institute of African and Asian Studies, University of Khartoum.

الأمين أبومنقة محمد (١٩٩٢): "العلاقات السودانية النيجيرية في إطار المهدية"، علاقات السودان الخارجية، تحرير حامد عثمان ومدني محمد أحمد، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر، ص ٧.

٥- تعبّر البحوث المنشورة في المجلة عن آراء كاتبيها.

٦- لهيئة التحرير الحق في إدخال التحرير والتعديل اللازمين على الأبحاث.

المشاركون في هذا العدد

١- بروفيسور/ أوشيك آدم علي، جامعة أسمرا (إريتريا).

٢- بروفيسور/ عبدالغفار محمد أحمد، قسم علم الاجتماع، كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية، جامعة الخرطوم.

٣- دكتور/ ياسر عوض، أستاذ مشارك، قسم العلوم السياسية، كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية، جامعة الخرطوم.

٤- دكتور/ حسن حامد مشيكة، أستاذ مشارك، معهد علوم الإدارة والحكم الاتحادي، جامعة الخرطوم.

٥- دكتورة/ منى علي محمد أحمد، وكالة ريتال للسفر والسياحة، الخرطوم.

٦- دكتور/ ناصر أحمد عمر، أستاذ مساعد، قسم الاقتصاد، كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية، جامعة سنار.

٧- دكتور/ خالد فرح، سفير بوزارة الخارجية، الخرطوم.

٨- دكتور/ الرشيد الحبوب، قسم أصول التربية والإدارة التربوية، كلية التربية، جامعة الخرطوم.

٩- بروفيسور/ قاسم عثمان نور، مدير مركز قاسم للخدمات والمكتبات.

رقم الإيداع: ١٢٦/ ٢٠١٠